

الباب الثاني عشر

العصر الذهبي

٣٠ ق. م - ١٨ م

الفصل الأول

الخافز الأغسطى

إذا كان الأمن والسلام أكثر ملاءمة لإنتاج الآداب والفنون من الحروب والقتال ، فإن الحرب والهزات الاجتماعية العنيفة تزيد الثرى من حول نبات الفكر ، وتغذى البذور التى تنضج فى أوقات السلم . والحياة الهادئة لا تخلق الأفكار العظيمة ولا عطاء الرجال ، ولكن الأزمات القاسية والكفاح من أجل البقاء تقتلع موات الأشياء من جذورها وتعجل نماء الآراء والأساليب الجديدة . والسلام التى تعقب النصر فى الحرب فيها من الحوائز والدوافع ما فى دور النقاهاة السريع من حيوية وقوة ، والناس فى هذه الفترة يبتهجون مجرد أنهم أحياء وكثيراً ما يرفعون عقيرتهم بالغناء .

حمد الشعب لأغسطس أنه عالج سرطان الفوضى الذى كان يقوض دعائم حياتهم المدنية وإن كان قد استعان على ذلك بجراحة كبرى . وقد دهشوا حين ألفوا أنفسهم وقد أثروا لإثراء سريعاً بعد ما حل بهم من الخراب ، وتاهوا كبرياء حين وجدوا أنهم ، رغم ما كانوا يرزحون تحته منذ قليل من ضعف واضطراب ، لا يزالون سادة العالم المعروف لهم . وأخذوا يعودون بتظرهم إلى تاريخهم ، من بدايته إلى الوقت الذى يعيشون فيه ، من عهد منشى دومة الأول إلى عهد معياد



(شكل ٣) أغسطس الإمبراطور

oboeikanda.com

أحياتها ومجدها ، وقالوا إنه تاريخ عجيب حقاً ، وإنه أشبه ما يكون بملحمة شعرية . ولم يثر دهشتهم أن يذوغ فرجيل وهوراس حمدهم ومجدهم وزهوم شعرا ، وأن يذوغه لبي نثراً .

وخير من ذلك كله أن الأقاليم التي فتحوها إلا القليل منها لم يكن يسكنها أقوامٌ ألهج غير متحضرين ، فقد كان جزء كبير منها يشمل البلاد التي تثقفت بالثقافة اليونانية - فكانت ذات لغة رقيقة ، وأدب سام ، وعلم عظيم ، وفلسفة ناضجة ، وفن نبيل . وأخذت هذه الثروة الروحية وقتئذ تتدفق على رومة ، وتثر في أهلها الرغبة في تقليدها ومنافستها ، وتبعث في لغتها وآدابها الحياة والنماء ، فسرت إلى المفردات اللاتينية ، عشرة آلاف كلمة يونانية ، ودخلت الأسواق الرومانية عشرة آلاف تمثال ونقش وهيكل وشارع وبيت .

وأخذت الأموال تنقل إلى غير الطبقات العليا ، وإلى الشعراء والفنانين ، من أيدي الذين استولوا على كنوز مصر ، ومن ملاك الأراضي الإيطالية الغائبين عنها ، ومن الذين يستغلون موارد الإمبراطورية وتجارتها . وشرع الكتاب يهدون مؤلفاتهم إلى الأغنياء يرجون بذلك أن ينالوا إعطية تغنيهم على مواصلة أعمالهم الأدبية ، فأهدى هوراس أغانيه إلى سالست ، وإبليوس لاميا Aelius Lamia ومانيوس تركواتس Manilius Turquatus وموناتيوس Munatius ، وجمع مسالا كورفينوس Messala Corvinus حوله طائفة من المؤلفين كان نجمهم اللمع تيبلس Tibullus ، واستعاد ماسناس ثروته وقيمة شعره بما قدمه من العطايا لفرجيل وهوراس وپروپيرتيوس Propertius ؛ وظل أغسطس حتى سنه الأخيرة التي استولى عليه فيها الاضطراب والغيظ يجزل العطاء للأدباء ، فكان يسره أن تتحول إلى الآداب والفنون تلك القوى التي كانت سبباً في اضطراب السياسة ، فكان يجزل العطاء للمؤلفين ليؤلفوا الكتب ، إذا ما تركوه يحكم الدولة كما يشاء . وقد ذاعت أنباء سخائه على الشعراء فاجتمعت حوله طائفة كبيرة منهم تسير في ركابه أينما سار .

وأصراً شاعر يوناني على أن يتعقبه كلما خرج من قصره كل يوم ، يعرض عليه أبياتاً من الشعر ، فما كان منه في يوم من الأيام إلا أن وقف وهو خارج من القصر وكتب وهو بعض أبيات من عنده ، وأمر أحد أتباعه أن يضعها في يد الشاعر اليوناني ، فعرض الشاعر عليه بضعة دنانير وقال إنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يقدم له أكثر منها ، فأجازه قيصر على فكاهته لا على شعره بمائة ألف سسترس (١) .

ونُشر من الكتب في ذلك الوقت ما لم ينشر مثله في أي عهد من العهود الماضية . أما الشعر فأصبح عمل كل إنسان فيلسوفاً كان أو أبلاً (٢) . وإذا كان المقصود بالشعر كله وبمعظم الكتب أن يقرأ على الناس بصوت عال ، فقد كانت تعقد الاجتماعات من الأصدقاء الذين يدعون لهذا الغرض ، أو من الجماهير ليقرأ عليهم المؤلفون ثمار قرائتهم . وكان يحدث في أوقات التسامح ، وهي نادرة ، أن يقرأ المؤلفون هذه الثمار بعضهم على بعض . وكان جوقنال Juvenal يقول إن من الأسباب التي تضطر دلسكني الريف هو أن يفر من الشعراء الذين تزدهم بهم رومة (٣) . وكان الكتاب يجتمعون في محال بيع الكتب التي يزدهم بها حتى الأرجليت Argiletum ليحصوا عدد من أنجبتهم البلاد من عباقرة الأدب ، بينما كان المفلسون من محبي الكتب يقرؤون نخاسة نتفأ من الكتب التي يعجزون عن شرائها . وكانت الإعلانات تلصق على الجدران معلنة أسماء الكتب الجديدة وأثمانها . فكان المجلد الصغير يباع بأربعة سسترات أو خمسة ، والمجلد المتوسط يباع بعشرة (نحو ريال أمريكي ونصف ريال) ، أما الكتب الأنيقة كحكم مارتيال Martial والتي كانت تزين في الغالب بصور مؤلفيها فكان الواحد منها يباع بخمسة دنانير أو نحوها (٣ ريال) . وكانت الكتب تصدر إلى جميع أنحاء الإمبراطورية أو تنشر في رومة ، وليون ، وأثينة والإسكندرية في وقت واحد (٥) . وقد اغتبط مارتيال

من أن كتابه يشتري ويباع في بريطانيا . وكان لمعظم الناس في ذلك الوقت حتى الشعراء أنفسهم مكتبات خاصة . ويصف أو قد مكتبته وصفاً ينم عن تعلقه بها . ويستدل من أقوال مارتياح على أن المولعين باقتناء الكتب قد وجدوا حتى في ذلك العهد السحيق ، فكانوا يجمعون النسخ الأنيقة الفخمة والمخطوطات النادرة ؛ وقد أنشأ أغسطس دارين من دور الكتب العامة ، وحذا حذوه تيبيريوس ، وقسپازيان ، ودومتيان Domitian ، وتراجان ، وهديريان ، فلم يحل القرن السابع قبل الميلاد حتى كان في رومة وحدها ثمان وعشرون من هذه الدور . وكان الأجانب من الطلاب والكتاب يقبلون عليها وعلى المخطوطات العامة للدرس والبحث ؛ فأقبل ديونيشيوس من هليكرنسس Halicarnassus ، وديودور من صقلية وأخذت رومة تنافس الإسكندرية في الحياة العلمية ، وأضحت العاصمة الأدبية للعالم الغربي . وكان هذا الازدهار سبباً في تحول الأدب والمجتمع كله عما كان عليه من قبل ، فعلت مكانة الآداب والفنون ، وأخذ النحاة يحاضرون عن الأحياء من المؤلفين ، وكان الناس ينشدون مقطوعات من أقوالهم في الطرقات ، والكتاب يختلطون بكبار الحكام وبنساء الطبقات العالية في الندوات الخاصة إلى حد لم يشهد التاريخ له نظيراً من بعد إلا في عصر ازدهار الآداب في فرنسا . وأضحى الأشراف أنفسهم رجال أدب ، كما أضحى الأدب نفسه أرسقراطياً ، وحل محل فيجورلينوس ، وپدوتس ، ولكريشيوس العارم جمال رقيق أو تعقيد بغيض في التعبير والتفكير . وامتنع الكتاب عن الاختلاط بالجاهير ، فامتنعوا بذلك عن وصف أساليبهم في الحياة وعن التحدث بلغتهم ؛ فبدأ الأدب ينفصل عن الحياة انفصلاً أفقد الآداب اللاتينية ما كان لها من حيوية . وأضحت الآداب تصاغ على الأنماط اليونانية ، كما كانت موضوعاتها تؤخذ من التقاليد اليونانية أو من بلاط أغسطس . وكان الشعراء إذا بقي لديهم وقت بعد وصف الرعاة على نحو ما كان يفعل ثيوكريتس ، أو الحب كما كان يفعل أناكريون Anacreon ،

يقضونه في التغنى بجمال الزرع وبفضائل الآباء ، ومجد رومة وعظمة الآلهة .
وسار الأدب في ركاب الحكيم ، وأضحى مواعظ تدعو الأمة إلى الاستمسك
بالأفكار الأغسطية .

وكانت في البلاد قوتان تقاومان تسخير الأدب لخدمة الدولة على النحو
السالف الذكر . أولاهما « جموع هوراس البغيضة الدنسة » التي كانت
تحب الأدب القديم والمسرحيات القديمة وما فيها من هجو لاذع وتجريح
وتفضلهما على جمال الأدب الجديد المعطر المنمق . أما القوة الثانية فكانت
دنيا الأراذل والعاهرات ، دنيا المرح والرذيلة ، التي كانت تنتمي إليها كلوديا
ويوليا . وقد ثارت هذه الفئة الغنية ثورة جامحة على القوانين اليوليوسية ،
وكانت تعارض كل إصلاح خلقي ، وكان لها شعراؤها ، ومجامعها
ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية . وأخذت القوتان المتعارضتان تتطاحنان
في الأدب كما تتطاحنان في الحياة ، فتلتقيان تارة كما التقتا في تيبلس ،
وإيروبيرتيوس ، وتقاومان تقي فرجيل وعفته ببذاءة أوفد وجرأته ،
وتقضيان على يوليا وابنتها(*) وعلى شاعر بالنقي من البلاد ، وتظلان في
هذا التطاحن حتى تنهك كلتاها الأخرى العصر الفضي . ولكن ضمائر
الأحداث العظيمة ؛ وما هيأته الثروة والسلم للناس من فراغ أطلق
قرائحهم ، وعظمة العالم الذي كان يدين لرومة بالطاعة ، كل هذا قد
غلب على ما في طبيعة الدولة من جمود ، وأنتج عصراً ذهبياً ظل الناس
في مستقبل الأيام يرون أنه أخرج أكمل الأدب طرا في صورته ولفظه .

الفصل الثاني

فرجيل

ولد فرجيل أحب الرومان إلى القلوب في عام ٧٠ ق. م في ضيعة قرب منتوا Mantua حيث يتعرج نهر منسيو Mincio ويتجه على مهل نحو الپو . ولم تنجب العاصمة من بعده إلا عدداً جديداً قليل من العطاء ، فقد كانوا في القرن الذي تلا مولد هذا الشاعر والذي ولد المسيح في منتصفه يجيئون من إيطاليا ، ثم جاءوا فيما بعد ذلك من الولايات . ولعل الدم الكلتى كان يجرى في عروق فرجيل لأن الغالين سكنوا منتوا قبل مولده بزمن طويل . وكان هو من الوجهة القانونية غالى المولد لأن أهل غالة الجنوبية لم يمنحوا حق المواطنة الرومانية على يد قيصر إلا بعد مولده باثنين وعشرين عاماً . ولعل هذا هو الذى جعل هذا الشاعر الذى كان أفصح من تغنى بعظمة رومة ومصيرها لا يذكر فيما بعد شيئاً عما يتصف به الجنس الرومانى من قوة فى الجسم وقدرة على مغالبة الصعاب ، بل يتغنى بما فى خلق الكلت من تصوف ورقة ورشاقة ، وهى صفات قل أن يجدها الإنسان فى العنصر الرومانى الأصيل .

وكان والده كاتب محكمة ، فادخر من مرتبه ما يكفى لشراء ضيعة وتربية النحل فيها ، وقضى الشاعر طفولته فى هذه البيئة الهادئة الطنائة ، ولذلك ظلت أشجار الشمال الظليلة ومياهه الغزيرة عالقة بخياله بعد أن شب وترعرع ، ولم يكن يحس بالسعادة الحقة إلا بين تلك الحقول والمجارى المائية . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى المدرسة فى كرمونا Cremona ، ثم أرسل فى الرابعة عشرة إلى ميلان ، وفى السادسة عشرة إلى رومة ، وهنا درس البلاغة وما يتصل بها من الموضوعات على الرجل الذى درسها عليه أكتافيان

فيما بعد : والراجح أنه حضر بعدئذ محاضرات سيرو Siro الأبيقورى في نابلى ، وبذل غاية جهده ليتقبل فلسفة اللذة ، ولكن نشأته الريفية حالت بينه وبين هذا الهدف ، ويلوح أنه عاد إلى موطنه في الشمال بعد أن أتم دراسته ، وذلك لأننا نجده في العام الرابع بعد الميلاد يسبح في الماء لينجو بحياته من جندي اغتصب ضيعة أبيه ؛ فقد صادرها أكتافيان وأنطونيوس لأن هذه البلاد انتصرت إلى أعدائهما . وحاول أسنيوس پليو Asinius Pollio العالم وحاكم غالة الإيطالية أن يرد الضيعة إلى مالكيها ولكنه عجز ، فعرضه عن ذلك بأن تولى رعاية الشاب فرجيل وشجعه على الاستمرار في كتابة « المختارات Eclogues » وهي القصائد التي كان ينشئها في ذلك الوقت . ولم يكد يجل عام ٣٧ حتى كان اسم فرجيل على كل لسان في رومة . ذلك أن المختارات نشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن ، وكانت إحدى الممثلات قد أنشدت أبياتها على المسرح ، وصدق لها النظارة تصنيفاً ملؤه الحماسة والإعجاب^(٦) . وموضوع القصائد هو وصف الرعى والرعاة على نمط قصائد ثيوقريطس Theocritus ، ونجد فيها أحياناً ألفاظها نفسها ؛ وهي جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التي استمعت لها رومة في تاريخها كله ، وهي مليئة بالحنان التأمل ، والحب التخيلي . ذلك أن الشاب وإن قضى شطراً كبيراً من حياته في العاصمة قد انفصل عنها زمناً يكفي لأن يجعله يمجّد حياة الريف ويعدها المثل الأعلى للحياة الحقّة . وكان من أثر شعره أن أصبح كل إنسان يسره أن يتخيل نفسه راعياً يسير مع قطعانه على سفوح الأبنين صاعداً أو نازلاً ، ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب .

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقريطية(*) ما كان في شعر فرجيل

(*) أى الشبهة بالأشباح التي يصفها في شعره ثيوقريطس شاعر الرعاة اليوناني الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد . (المترجم)

من وصف للمناظر الريفية . وقد مجد فرجيل هذه المناظر أيضاً كما مجد مناظر الرعى واتخذها هي الأخرى مثلاً أعلى للحياة ؛ ولكنه هنا لم يكن مقلداً ، فقد استمع من قبل إلى أغاني الخطاب الشهوانية ، وشهد بعينه النحل القلق يجوم حول الأزهار (٨) ، وعرف يأس الزارع الخلى البال الذي خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم في تلك الأيام (٩) . على أن أهم من هذا كله أنه كان شديد الإحساس بما كان يرتجيه ذلك العصر من القضاء على التخرب والحرب . وكانت الكتب السبيلية Sibylline قد تنبأت بأن عصر زحل الذهبي سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدي ؛ وما أن ولد في عام ٤٠ ق . م وآد^١ لآسينيوس بليو نصير فرجيل أعلن الشاعر في الكتاب الرابع من المختارات أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة فقال :
والآن يعود العصر الأخير الذي (يبشر به) نشيد كومية (سبيل) ،
وهاهي ذى الأحقاب العظيمة المتعاقبة تولد من جديد وتعود العنراء (*) ،
ويعود حكم زحل (Saturn) وينزل من السماء العليا جيل جديد ؛ أي
لوسينا الطاهرة العفيفة (زبة المواليد) ! ابتسمى للغلام الذي ولد منذ قليل ،
والذي سيزول في عهده لأول مرة جيل الحديد ، وينشأ في العالم جيل
الذهب . إن إلهك أباو قد أصبح الآن ملكا على الأرض .

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، فتخلص الناس من عدد الحرب الحديدية ، وسيطر على البلاد جيل جديد مسلح بالذهب ومفتون به ؛ ولم تشهد رومة في السنين القليلة الباقية من حياة فرجيل اضطرابات جديدة ، وعمها الرخاء والسعادة ، وحيها الناس أغسطس ولقبوه بالمنقذ وإن لم يلقبوه أبلون . ورحب بلاط الإمبراطور - وإن لم يكن فيه من مظاهر العظمة والأبهة إلا نصف ما في بلاط الملوك -

(*) هي أستريا Astraea أو العدالة ، وهي آخر من غادر الأرض من الآدميين كما ورد في أسطورة عصر زحل . (الترجمة)

بما في شعر فرجيل من تفاؤل ؛ واستقدمه إليه ماسيناس ، وأحبه ، ورأى فيه أداة شعبية ينفذ بها إصلاحات أكتافيان . وكان حكمه هذا دليلاً على بعد نظره ؛ ذلك أن فرجيل - وكان في الثالثة والثلاثين من عمره - كان يبدو وقتئذ رجلاً ريفياً سمحاً ، شديد الحياء إلى حد يجعله يتلعثم إذا تكلم ، يتجنب الظهور في أى مكان عام يمكن أن يعرفه الناس فيه ويشيروا إليه ، لا يطيق مجتمعات رومة الراقية الحديثة المهذرة المتطاولة . وفوق هذا فقد كان فرجيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالاً ، يشكو شكوى مستمرة من الصداع وأمراض الحلق ، واضطرابات المعدة والبصاق الدموي الكثير . ولم يتزوج فرجيل قط ، ويلوح أنه لم يكن أكثر إحساساً بالحب العارم الطليق من بطلة إنياس . ويبدو أنه أتى عليه حين من الدهر كان يواسى نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان معروفاً في نابلي باسم « العذراء » (١٠) .

وكان ماسيناس كريماً في معاملة الشاعر الشاب ، فأقنع أكتافيان بأن يرد له ضيعته ، واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجدها فيها الحياة الزراعية . وكانت إيطاليا في ذلك الوقت (٣٧ ق . م) تجزى أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية إلى مراعى وبساتين ، وكروم ؛ وكان سكستس پمبي يمنع عنها الطعام الذي يرد من صقلية وأفريقية ؛ ونقص القمح ينثرها بانفجار بركان الثورة من جديد . وكانت حياة المدن توهن ما في شباب إيطاليا من رجولة ، ولاح أن صحة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة إلى حياة الزرع . فلما اقترح ماسيناس على فرجيل أن يكتب القصائد التي تمجدها الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره ، فقد كان عليها بحياة الريف ، وكان أجدر الناس بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال معتمداً على ما اختزنه في ذاكرته من حب لها عظيم ، وإن كان ضعف صحته في ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب . وخبأ

للشاعر نفسه ناپلى ، وبعد أن ظل يعمل سبع سنين خرج على العالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهى القصيدة المعروفة باسم Georgics وترجمتها الحرفية « العمل فى الأرض » . وسر منها ماسيناس وجاء معه بفرجيل إلى الجنوب ليقابل أكتافيان ، وكان وقتئذ (٢٩ ق . م) عائداً من انتصاره على كليوباترة . واستراح القائد المصنفى بلدة أتلا Atella الصغيرة ، وأخذ يستمع أربعة أيام كاملة لألفى بيت ، وهو مأخوذ بجهاها مفتتن بسحرها . هذا إلى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقاً يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس . فقد كان يعزم الآن أن يسرح الجزء الأكبر من جيوشه الحرارة التى ساد بها العالم : وأن يعمل على أن يستقر جنوده المضرسون فى الأرض فيستطيع بذلك أن يهدى بهم ، وأن يطعم المدن الإيطالية ، ويحفظ كيان الدولة ، كل ذلك بفلح الأرض فى الريف . وأصبح فرجيل من ذلك الوقت حراً فى أن يفكر فى الشعر دون غيره .

فى هذه القصائد نرى فناً عظيماً يعالج أشرف الفنون بأجمعها - فن زراعة الأرض . وفيها يأخذ فرجيل عن هزيود Hesiod وأراتس Aratus ، وكاتو ، وقارو ولكنه يحول نثرهم الحشن أو أبياتهم العرجاء إلى شعر رقيق مصقول ؛ وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويوفىها حقها - فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها ، وفصول الزرع والحصاد ، ويبحث فى غرس أشجار الزيتون والكروم ، وتربية الماشية والحيل والضأن ، والعناية بالنحل . ويستهو به كل عمل من أعمال الزراعة ويشير اهتمامه ويستحوذ على فكره حتى ليحتاج إلى أن يحذر نفسه من الانهماك فى الموضوع الذى يتحدث عنه ونسيان ما بعده ، فيقول :

« ولكن الوقت يمر مرأ سريعاً ، وما مر منه لا يمكن أن يعود أبداً ، على حين أننا نحن يسحرنا حب (موضوعنا) فنطيل الوقوف عند كل دقيقة من دقائقه » . ولا ينسى فرجيل أن يقول كلمة عن أمراض الحيوانات وطريقة علاجها ، ويصف حيوانات المزرعة المعروفة وصفاً يدل على فهمه

لطبائعها وعطفه عليها ، وهو لا يفرغ أبداً من الإعجاب ببساطة غرائزها وقوة انفعالاتها ، وكمال أشكائها . وهو يمجّد الحياة الريفية ويجعلها هي المثل الأعلى للحياة ، ولكنه لا ينسى ما فيها من المشاق ومن تقلبات الحظوظ ، ومن الجهود المضنية ، والكفاح الدائم للحشرات ، وتناوب الجذب والعواصف ، وما تسببه هذه وتلك لأهل الريف من عذاب أليم . ولكن العمل في رأيه يقهر كل شيء^(١٢) ، كما أن للجهود التي تبذل في أعمال الزراعة غرضاً ونتيجة تكسبها كرامة ، وليس لأى روماني أن يشعر بالهجل من قيادة المحراث . ومن أقوال فرجيل إن الأخلاق الكريمة تنشأ في المزارع ، وإن جميع الفضائل التي قامت على أساسها عظمة رومة قد غرست وغذيت في الريف ، وإن الإنسان قلما يجد عملاً من أعمال إلقاء البذور ووقايتها ، والغرس والعزق والحصاد إلا له ما يقابله في تنمية الروح وتقويتها ، وإن الروح إذا كانت في الحقول ، حيث معجزات النماء وتقلبات الجواء تنبئ عن وجود القوى الخفية ، لتحسن بوجود الحياة المبدعة الخالقة ، وتتأثر بالإلهام الإلهي ، وتدرك ضآلتها أمام عظمة هذه الحياة ، وتمتلئ إجلالاً لها وتعظيماً ، أسرع من إحساسها وتأثرها وإدراكها لذلك كله وامتلاؤها به في المدينة . وهنا ينشد أشهر أبياته كلها ، ويبدوها بتزيد صدى معاني لكريشوس ، ولكنه ينشدها بنغمة فرجيلية خالصة فيقول :

« أما ما أسعد الرجل الذي استطاع أن يتعلم علل الأشياء ، ويطأ بقدمه جميع المخاوف والأقدار القاسية العنيدة وصخب الجحيم الشره . ولكن الرجل الذي يعرف الأرباب الريفية بان ، وسلفانوس الهرم ، والأخوات الحوريات لا يقل عنه سعادة^(١٣) . وهو يرى أن الزارع على حق حين يستضي الآلهة بالضحايا ، ويستجلب عطفها ورضاها ؛ لأن هذه الأعمال الدالة على التقى والصلاح تبعث بأعيادها وحفلاتها الضياء في أعمال الفلاحة الشاقة ، وتخلع على الأوض وعلى الحياة معنى ، وشاعرية وخيالاً ذا روعة .

وكان دريدن يرى أن هذه القصائد « خير أشعار أحسن الشعراء (١٤) ». وهي تشترك مع De Rerum Natura في تلك الميزة النادرة الوجود وهي أنها تلقينية جميلة معاً . ولم تأخذها رومة يجد على أنها كتاب في الزراعة ، ولسنا نعرف أن أحداً ممن قرؤوها قد استبدل المزرعة بالسوق العامة ؛ ولعل فرجيل إنما كتب هذه النفحات الريفية كما يظن سنكا ليطرب بها أهل المدن . ومهما يكن من شيء فقد أحس أغسطس أن فرجيل أدى الأمانة التي عرضها عليه ماسناس على خير وجه وأكمله ، فاستدعى الشاعر إلى قصره واقترح عليه أن يقوم بواجب أشق من الأول موضوعه أوسع وأعم من الزرع وحياة الريف .

الفصل الثالث

الإنيادة

لقد كانت الفكرة الأولى أن يتغنى فرجيل بمعارك أكتافيان (١٥) ، ولكن ما يفترضه القدماء من انحدار قيصر ربيب أكتافيان من الزهرة (فينوس) وإنياس هو الذى جعل الشاعر - أو لعله جعل الإمبراطور - يفكر فى إنشاء ملحمة فى تأسيس رومة . ثم تفتح الموضوع أمام الشاعر ، فشمّل الأحداث التى وقعت بعد تأسيس رومة ، والتنبؤ بإنشاء إمبراطورية أغسطس ، وبالسلام التى كانت أثراً من أعماله . وشمّل مشروع الملحمة أيضاً وصف أخلاق الرومان فى أثناء هذه الأعمال المحيطة ، والسعى نبث حب الفضائل القديمة فى قلوب الرومان ، وتصوير بطلها فى صورة الإنسان الذى يعظم الآلهة ، ويهتدى بهديها ، ويدعو إلى الإصلاحات والمبادئ الأخلاقية التى دعا إليها أغسطس فيما بعد .

فلما رسم فرجيل خطوط الملحمة الرئيسية آوى إلى عدة أماكن نائية منعزلة فى إيطاليا ، وقضى العشر السنين التالية (٢٩ - ١٩) فى تأليف الإنيادة . وكان يكتب فيها على مهل مخلصاً فى عمله إخلاص فلوبيير Flaubert ، فيملى بضعة أسطر فى صدر النهار ثم يعيد كتابتها فى الأصيل .

وكان أغسطس فى هذه الأثناء ينتظر إتمام الملحمة بفارغ الصبر ، وكثيراً ما كان يسأل عما تم منها ، ويلجّ على فرجيل بأن يبعث إليه كل ما يفرغ من كتابته . وظل الشاعر يستمهله أطول وقت مستطاع ، ولكنه أخيراً قرأ له الكتب الثانية والرابعة والسادسة منها . ولما سمعت أكتافيا أرملة أنطونيوس الفقرة التى تصف ابنها مرسلس الذى مات من عهد قريب ، أعمى عليها (١٦) .

ولم تم الملحمة ولم تراجع المراجعة الأخيرة ، لأن فرجيل سافر إلى بلاد

اليونان في عام ١٩ ق . م والتقى بأغسطس في أثينة ، وأصيب بضربة شمس في مجاراته ، فقفل راجعاً إلى بلده ومات بعد أن وصل برنديزيوم بزمن قليل ، وطلب وهو على فراش الموت إلى أصدقائه أن يتلفوا مخطوط الملحمة قائلاً إنه كان يحتاج إلى ثلاث سنين على أقل تقدير لصقلها وإعدادها للنشر ، ولكن أغسطس أمرهم ألا ينفذوا هذه الوصية .

أما قصة الإنيادة فيعرفها كل تلميذ . وخلاصتها أنه بينما كانت مدينة طروادة تحترق يظهر شبح هكتور القتيل إلى « إنياذ الصالح » قائد أحلافه الدروانيين ، ويأمره أن يستعيد من اليونان ما كان في طروادة من « أشياء مقدسة وآلهة منزلية » . وأهمها كلها الپلاديوم Palladium أو صورة پلاس أثيني Pallas Athene ؛ وكانوا يعتقدون أن بقاء الطرواديين موقوف على الاحتفاظ بها . وفي ذلك يقول هكتور Hector بطلهم المعروف : « ابحتوا عن هذه » الرموز المقدسة « لأنكم بعد أن تطوفوا بالبحار ستقيمون لكم آخر الأمر مدينة عامرة » (١٧) . ويفر إنياس مع أبيه الشيخ أنكيسيز Anchises وابنه اسكنيوس ، فيركبون سفينة تقف بهم في أماكن مختلفة ، ولكن أصوات الآلهة تنادهم على الدوام أن يواصلوا السير . وتدفعهم الريح إلى مكان قريب من قرطاجنة حيث يجدون أميرة فينيقية تدعى ديدو Dido تشيد مدينة جديدة . (وبينما كان فرجيل يكتب هذا كان أغسطس ينفذ مشروع قيصر وهو إعادة بناء قرطاجنة) . ويقع إنياس في حب الأميرة ، وتهب عاصفة مواتية فتتيح لها الفرصة لأن يلبأ معاً إلى كهف واحد ، ويتم بينهما ما تعده ديدو زواجاً ، ويقبل إنياس تفسيرها هذا إلى حين ، ويشترك هو وزجاله وهم راضون في بناء المدينة ، ولكن الآلهة القاسية ، التي لا تراها قط في الأساطير القديمة تعني كثيراً بالزواج ، تنذره بالسفر وتقول له إن هذه ليست هي البلدة التي يجب عليه أن يتخذها عاصمة له . ويصدع إنياس بما يوثر ، ويترك الملكة الحزينة وهو يودعها بهذه الألفاظ الشبيهة بالغناء :

« لن أنكر قط أيتها الملكة أنك تستحقين منى ما تعجز الألفاظ عن التعبير عنه ... إني لم أمسك قط مشعل الزوج ولم أقسم يمينا الزواج ... ولكن أبلو قد أمرني الآن بركوب البحر ... فامتنعي إذن عن أن تهلكي نفسك وتهلكيني بهذه الشكايات : إني لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتي » (١٨).

« رأسي إلى إيطاليا بمحض إرادتي » ، هذا هو سر القصة ومحورها الذي تدور عليه ، ونحن الذين نحكم على فرجيل وبطله بعد ثمانية قرون من كتابة الأدب العاطفي وقراءته ، نعلق على الحب الروائي ، وعلى العلاقات بين غير الأزواج ، أكثر مما كان يعلقه عليها اليونان والرومان . فقد كان الزواج عند الأقدمين رابطة بين الأسر أكثر مما كان رابطة بين الأجسام والأرواح ، وكانت مطالب الدين أو الوطن أسمى منزلة من حقوق الأفراد ونزواتهم . ويعطف فرجيل على ديدو ويسمو إلى ذروة البلاغة في فقرة من أجل فقرات ملحمته حين يتحدث عنها وهي تلقي بنفسها فوق كومة من الحطب المعد لحرق الموتى وتحرق نفسها حية ؛ ثم يسير في ركاب إنياس إلى إيطاليا .

وينزل القرطاجنيون إلى البر عند كومي ثم يثرون إلى لا تيوم حيث يستقبلهم ملكها لاتنس ويرحب بهم وكانت ابنته لا فينيا Lavinia مخطوبة لترنس Turnus وهو شاب وسيم وزعيم الروتوليين المجاورين لهذه المدينة ، ويوقع إنياس الحفوة بينها هي وأبيها وبين خطيبها ؛ ويعلن ترنس الحرب عليه وعلى لا تيوم ، وتنشب معارك حامية الوطيس . وتعزم سييل الكومائية Cumaean Sibyl أن تقوى إنياس وتشجعه ، فتأخذه إلى تارتاروس بطريق بحيرة إيرنس Aernus . وكما أن فرجيل قد كتب ملحمة عن تجوال إنياس على نمط أوديسية هومروس وأخرى قصيرة عن حروبه شبيهة بالإلياذة ، فإنه الآن يستوحى رحلة أوديسيوس في الجحيم ، ويصبح هو نفسه مثلا يحتذيه دانتى ويهتدى بهديه في ملهاته المقدسة . وفي هذا يقول فرجيل : « ما أسهل النزول إلى الجحيم Facilis descensus

Averni « ، ولكن بطله يجد الطريق إليها وعراً شديداً العذاب ، كما يجد العالم السفلي معقداً شديداً الاختلاط . وفي هذا العالم يلتقي بديدو ، فتشيع بوجهها عما يبته من وجده ؛ ويشهد ضروب العذاب التي يعاقب بها من ارتكبوا الذنوب على وجه الأرض ، والسجن الذي يعذب فيه أنصاف الآلهة (*) المتمردون كما يعذب الشيطان . ثم تأخذه سيبيلا إلى أليك السعداء حيث ينعم الصالحون في الأودية الخضراء بالنعيم السرمدي . وهنا يشرح له والده أنكيسيز ، الذي توفي في الطريق ، أسرار الجنة ، والمطهر والجحيم ويصور له في أوضح صورة وأشملها مجد رومة وأبطالها في مستقبل الأيام . وتكشف له الزهرة في رؤيا أخرى عن موقعة أكتيوم وانتصارات أغسطس وبعد أن تنتعش روح إنياس بهذه المناظر يعود إلى عالم الأحياء ، ويقتل ترنس ، وينشر الموت من حوله ببطشه وشدة بأسه . ويتزوج بلثينيا الخيالية ثم يموت والدها فيرث عرش لاتيوم ، ولا يلبث أن ينجر صريعا في إحدى المعارك ، وينقل إلى جنان الفردوس ، ويشيد ابنه أسكانيوس Ascanins ألبانجا لتكون عاصمة جديدة للقبائل اللاتينية ، ومنها يخرج من نسله رمولرس وريموس ليشيدا مدينة رومة .

ويبدو أن من سوء الأدب أن ينتقد الإنسان نفساً كريمة رفيعة كنفس فرجيل لما تغمر به بلدها وإمبراطورها من ثناء وتعظيم ، أو أن ينقب الإنسان عن عيوب في ملاحم لعله لم يرغب قط في كتابتها ، ولم يعش ليتها . ولا حاجة إلى القول بأنه كتبها على نمط الملاحم اليونانية ، وتلك هي السنة التي جرى عليها الأدب الروماني كله إذا استثنينا منه الهجاء والمقالة . غير أننا نستطيع لأنفسنا هذا القدر من النقد ، وهو أن مناظر المعارك الحربية ليست إلا أصداء ضعيفة لما في مناوشات الإلياذة من قعقة وضجيج ، وأن أورورا Aurora

(*) أي من كان في طبائعهم شيء من الألوهية وخاصة أولئك الأبطال الذين تصفهم

الأساطير بأنهم تناسلوا من زواج الآلهة بالآدميين . (المترجم)

تظهر في الإنيادة بقدر ما تظهر ربة الفجر ذات الأصابع الوردية في الإلياذة
هومر : ويستعر الشاعر من نثيفيوس وإنيوس ، ولكريشيوس حوادث
وعبارات ، وسطوراً كاملة في بعض الأحيان ، كما أن أبولونيوس الرودسي
Apollonius of Rhodes هو الذى يمدد بالمثل الذى يحتذيه فى حب
ديدو المفجع ، وهذا النموذج هو أرجوتونكا Argonautica . وكانت
هذه الاستعارات الأدبية جائزة لا غبار عليها فى عصر فرجيل ، كما كانت
جائزة فى عصر شيكسبير ، ذلك أنه كان ينظر إلى آداب البحر الأبيض
المتوسط كلها على أنها تراث عقول البحر الأبيض المتوسط كلها ، والمعين
الذى تستمد منه هذه العقول . ولا جدال فى أن ما تقوم عليه الملحمة من
أساطير تتعب القارئ وتبعث فى نفسه الملل ، وذلك لأننا نضع لأنفسنا الآن
أساطير أخرى جديدة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أيضاً أن هذه الإشارات
واللمحات الإلهية التى تتخلل القصيدة كانت مألوفة محبوبة حتى لقراء الشعر
الرومانى المتشككين . ولنسنا نجد فى ملحمة فرجيل العليل ذات الشعر الهادى
السلس ما نجده فى قصة هومر من حوادث دافقة ، كما أننا لا نجد فيها الحقائق
التي يسرى فيها دم الحياة والتي تحرك جبابرة الإلياذة ، أو أهل إيثاكا Ithaca
السذج ؛ يضاف إلى هذا أن قصة فرجيل كثيراً ما تمشى الهوبنا ، وأن
أشخاصهم تقريباً مرضى إلا الذين يهجرهم إنياس أو يقضى عليهم .
وديدو الإنياذة امرأة حية لطيفة ، خادعة ، شديدة الانفعال ، وترنس
محارب ساذج شريف يغدر به لانس ، وتحكم عليه الآلهة السخيفة بموت هو
غير جدير به . وبعد أن يقرأ الإنسان عشر مقطوعات كلها نواح وندب ،
تشمز نفسه من « تقى » إنياس الذى يتركه مساوب الإرداة . يُغتفر له
عذره ، ولا يواتيه النجاح إلا بتدخل القوى السماوية ، وفوق هذا كله
فإننا لا نستمتع بالخطب الطويلة التى يقتل بها الشاعر الصالحين من
الرجال ، والتي تكون بلاغتها سبباً آخر من أسباب مللنا ، يضاف

إلى هذا ما نجده فيها من تمحيص هو محك الإنسانية النهائي لمعرفة الحقيقة .

وإذا شئنا أن نفهم الإنيادة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذي هي جديرة به كان علينا أن نتذكر في كل قسم من أقسامها أن فرجيل لم يكن يكتب رواية خيالية ، بل كان يكتب لرومة كتاباً مقدساً ، وليس ذلك لأنه يقدم لها شريعة دينية واضحة ، فإن الآلهة الذين يسرون الحوادث في تمثيلته من وراء الستار لا يقلون خبثاً عن آلهة هومر ، وإن لم يكونوا قريبين من البشر الفكهين قرب هؤلاء ؛ بل إنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل ما في القصة من شر وشقاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسهم . وأكبر الظن أن فرجيل لم يكن يربى في أوائل الأرباب إلا أنهم أدوات لشعره ، ورموز للظروف الظلمة المستبدة ، والحادثات المفاجئة التي تخل بسير العالم المنتظم ؛ الرتيب وهو على العموم يتذبذب بين جوف رب الأرباب وبين القدر اللاشخصي ، فهذا يسيطر على الكائنات نارة وذلك يسيطر عليها نارة أخرى . وآله القرية والحقل أحب إليه من آلهة أولمبس ، فهو لا يترك فرصة تتاح له إلا لمجد الأولى ووصف طقوسها ومراسمها ، وتمنى لو استطاع الناس أن يعوجوا إلى ما كانوا عليه من حب الآباء ، والوطن ، والآلهة ، وهو الحب الذي كانت تغذيه العقيدة الريفية البدائية : « أسنى على تقوى الأقدمين وإيمانهم ! » غير أنه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعاً الصالح منهم والاطالح بل تخالجه أفكار أرفية(*) فيثاغورية عن تجسد الأرواح بعد الموت ، وعن الحياة في الدار الآخرة ، وهو يوضح إلى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب في الجنة والمطر ، والعقاب في الجحيم .

لكن الدين الحقيقي في الإنيادة هو دين الوطنية ، وإلهها الأعم هو رومة

(*) نسبة إلى أرفيوس وهو الشاعر الذي يقال عنه إنه كان يحرك الجماد بصوت مزماره .

لمصير رومة هو المحرك لحبكة القصة ، وكل ما في القصة من عنن وشدائد-
إنما يرجع إلى « الواجب المضمنى واجب بعث الشعب الرومانى *tantae molis erat*
Romanam Condere gentem » . والشاعر فخور بالإمبراطورية فخراً
يمنعه أن يحسد اليونان على تفوقهم فى الثقافة ويقول فى ذلك : فاتحول
الشعوب الأخرى الرخام والبرنز إلى شخوص حية ولترسم مسارات النجوم .

« أما أنت يا ابن رومة ، فواجبك أن تحكم العالم ، وستكون فنونك
أن تعلم الناس طرائق السلم ، وأن تشفق على الدليل ، وتذل الفخور (٢٠) » .
و فرجيل لا يأسف على موت الجمهورية ، وهو يدرك أن حرب الطبقات
هى التى قضت عليها ولم يقض عليها قيصر ؛ وهو فى كل جزء من أجزاء
قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيعيدها سيرتها الأولى ، ويرحب به ويصفه
بأن حكم زحل قد عاد إلى الأرض ، ويعده بأنه سيجزى على عمله بأن
يحشر فى زمرة الأرباب . وقصارى القول أن أحداً من الناس لم يوف بما
ألقى على كاهله من واجب أدبى بأكمل مما وفى به فرجيل .

يبقى بعد ذلك أن نسأل لم نحتفظ بحبنا الشديد لهذه الدعاوة للتقى
وصالح الأخلاق ، وحب الوطن ، والنصرة الإمبراطورية ؟ إن من
أسباب هذا الحب ما نجد فى كل صفحة من رقة روح الشاعر وظرفه ،
وأنا نشعر بأن عطفه قد امتد من إيطاليا ببلاده الحميلة إلى جميع بنى الإنسان ،
بل إلى جميع الكائنات الحية ؛ فهو يدرك آلام الطبقات العليا والدنيا ،
ويعرف أهوال الحرب وما يصحبها من فحش وورذيلة ، ولا ينسى أن
أنبل الناس أقصرهم أجالا ، وأن ما فى الحياة من أحزان وآلام ، وما فى
« الأشياء من دموع *lacrimae rerum* » تذهب بهجة الأيام تارة وتزيدها
تارة أخرى . وهو حين يكتب عن « العندليب الذى يبكى فى ظلال شجرة
الحور فقد صغاره التى أبصرها الحراث فانتزعها من قبل أن يكسوها الريش ،
فيقضى الليل كله ينتحب ، ثم يجثم على فنن ويعيد أغنيته الحزينة ،

ويملاً الغابة بها وبعويله» (٢١). نقول إنه حين يفصل هذا لا يقلد لكريشيوس فحسب . وإن الذي يجذبنا نحو فرجيل مراراً وتكراراً هو ما في حديثه من جمال لا ينقطع أبداً . ولم يكن عبثاً منه أن ينكب على كل سطر من سطورهِ « فيلعه بلسانه ليسويه ويصقله ، كما تلعق الدبة ديسمها» (٢٢) . وإن يستطيع أحد غير القارئ الذي حاول الكتابة أن يتصور ما عاناه الشاعر من التعب حتى أكسب قصته ما فيها من نعومة وسلاسة ، وزينها بكثير من الفقرات ذات الأنغام القوية الرنانة التي تطالعنا في كل صفحتين من الكتاب ، وتغرى القلم باقتباسها واللسان بالنطق بها . ولعل القصيدة مفرطة في جمالها المتناسق المتماثل ، لأن جمال اللفظ نفسه يمل إذا أفرطت فصاحته في الطول . وفي فرجيل سحر نسائي ولكننا لا نطالع فيه قط ما نجد في شعر لكريشيوس من رجولة وقوة التفكير ، كما لا نجد فيه تلك الأمواج الصاخبة التي نراها ذلك « البحر المتلاطم العجاج » المسمى - هومر . ونحن نبدأ نفهم ما يعزى إلى فرجيل من حزن واكتئاب ، حين نتصوره يدعو إلى عقائد لم يكن في وسعه قط أن يستعيدهما في نفسه ، ويقضي عشر سنين في كتابة ملحمة تتطلب كل حادثة من حوادثها ، ويتطلب كل سطر من سطورها ، ما يحتاج إليه الفن المصطنع من جهود ، ثم يموت والأفكار تساوره بأنه عجز عن تحقيق غرضه ، وأن خياله لم ينره وميض من الإبداع والابتكار ، وأنه لم يبعث في أشخاصه نسمة الحياة . ولكن أحداً لا يجادل في أن الشاعر قد انتصر نصراً مؤزراً على أدواته إن لم يكن قد نال هذا النصر نفسه على موضوعه . وقلما بلغت الصناعة ذلك الحد الأعلى من الإعجاز الذي بلغته في شعر فرجيل .

وبعد عامين من وفاته أخرج منقذو وصيته قصيدته إلى العالم ، وقام بعضهم يعيها ويسفها : فنشر أحد النقاد ثبناً طويلاً يعيها ، ونشر غيره ثبناً آخر بما فيها من سرقات ، وأصدر ثالث ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر فرجيل والشعر القديم من شعر (٢٣) . ولكن رومة سرعان ما نسيت هذه الشريعة (١ - ٦ - ٢ - ١ - مجلد ١)

الأدبية ، فوضع هوراس فرجيل في مستوى هومر ، ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر ، ظل الناس فيها يحفظون الإنياذة عن ظهر قلب ، وظل الناس جميعهم خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه ، والصناع ، والتجار ، يقتبسون من شعره ، وشواهد القبور والجدران تنقش عليها عباراته ؛ ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غامضة يمتطعونها من أبيات ملحمة ؛ وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التي لم تنقطع إلى عصر النهضة ، عادة فتح ملحمة فرجيل فتحاً عشوائياً للبحث عن نصيحة أو نبوءة في أول فقرة تقع عليها عين الفاتح . وانتشر صيته حتى كان يعد في العصور الوسطى من السحرة والقديسين . كيف لا وهو الذي تبدأ في النشيد الرابع بمجىء المنتقد ، ووصف رومة في الإنياذة بالمدينة المقدسة التي ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه ؟ ألم يصور في الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعذاب المذنبين ، وتطهيرهم في نار المطهر ، ونعيم الصالحين في الجنة ؟ لقد كان فرجيل أيضاً كما كان أفلاطون ذا روح مسيحية طبيعية رغم آلمته الوثنية ، وكان دانتي يعجب بعدوبة شعره ، ولم يكن يسترشد به في وصف الجحيم والمطهر فحسب ، بل كان يسترشد به أيضاً في تدفق فنه القصصي وجمال حديثه ؛ وكان ملتن يفكر فيه وهو يكتب الفرروس المفقود وخطب الشياطين والآدميين الطنانة والرنانة ؛ وكان فلتير - وهو الذي كنا نتوقع أن يكون أفسى مما كان في الحكم على فرجيل - يصف الإنياذة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبي (٧٤) .

أفضل الرابع

هوراس

إن من أجمل الصور التي يشاهدها الإنسان في عالم الأدب - والتي تبدو فيها الغيرة بين الناس شديدة لاتفوقها إلا غيرة العشاق - هي صورة فرجيل وهو يقدم هوراس إلى ماسيناس . فقد التقى الشاعران في عام ٤٠ ق . م ، حين كان فرجيل في الثلاثين من عمره وهوراس في الخامسة والعشرين ، وفتح له فرجيل أبواب ماسيناس بعد عام من ذلك الوقت وبقي الثلاثة بعدئذ أصدقاء أوفياء حتى فارقوا هذا العالم .

واحتفلت إيطاليا في عام ١٩٣٥ بمرور ألفي عام على مولد كونتس هوراشيوس فلاكس Quintus Horatius Flaccus ، وكان مولده في بلدة فنوزيا Venusia الصغيرة من أعمال أبوليا Apulia ، وكان والده رقيقاً معتوقاً ارتفعت منزلته حتى أصبح جابياً - أو صياداً كما يقول بعض الناس (٢٣) . ومعنى كلمة فلاكس ذو الأذن المدلاة ، وأكبر الظن أن هوراشيوس هو اسم السيد الذي كان الوالد في خدمته . وأثرى العبد المعتوق بطريقة ما ، وأرسل ابنه إلى رومة ليدرس البلاغة ثم أرسله إلى أثينة ليدرس فيها الفلسفة . وفي هذه المدينة انضم الشاب إلى جيش بروتس وتولى قيادة أحد الفيالق ، وقال وقتئذ قالته المأثورة « إن من ألد الأشياء وأشرفها أن يموت الإنسان في سبيل بلاده dulce et decorum » (٢٦) pro patria mori . ولكن هوراس - وكان يقلد أركلوكس Archilochus في أغلب الأحيان - ألقى بدرعه في إبان المعركة وولى الأدبار . ولما وضعت الحرب أوزارها ألقى نفسه وقد جرد من جميع أملاكه ومن كل ما ورثه

عن أبيه ، « ودفعتني المسغبة إلى قرض الشعر » (٢٧) ، ولكن الحقيقة أنه كان يكسب قوته من منصب كاتب كوستر .

وكان قصيراً بديناً ، مزهواً حياً ، لا يحب السوق ولكنه لا يجد من الثياب أو المال ما يعينه على الاختلاط بالأوساط التي نالت من التعليم ما ناله هو . وكان يخشى عواقب الزواج فاكتمى على حد قوله بالسراري والعشيقات ؛ وهو قول قد يكون حقاً ، وقد لا يكون إلا نوعاً من الترخص الشعري اخترعه للدلالة على نضوجه . وقد كتب عن العاهرات كتابة جمعت بين حذر العلماء وتعقيد الشعراء ، وأظن أنه جدير بأعظم الثناء لأنه لم يُغو النساء المتزوجات (٢٨) . وإذا كان أفقر من أن يقضى على نفسه بالانهماك في الشهوات الجنسية فقد عمد إلى قراءة الكتب وكتابة الأغاني باللغتين اليونانية واللاتينية ، وبأصعب أوزان الشعر اليوناني وأكثرها اختلاطاً . وأطلع فرجيل على إحدى هذه القصائد وامتدحها لماسيناس . وسر الأبيقوري الرحيم من حياة هوراس وتلجلجه في الحديث ، ووجد في سفسطه الفكرية ما يدعو إلى حبه . وفي عام ٣٧ اصطحب ماسيناس فرجيل وهوراس وغيرهما من الصحاب في سفرة قصيرة متشرقين إيطاليا في قارب قنوى تارة ، وعربة ومحمل تارة أخرى ، ثم سيراً على الأقدام في بعض الأوقات . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم ماسيناس الشاعر لأكتافيان ، واقترح عليه أن يعينه أمين سره . فاعتذر الشاعر قائلاً إنه لا يجد من نفسه ميلاً إلى العمل . وفي عام ٣٤ أهدى إليه ماسيناس بيتاً وضيعة تدر عليه بعض المال في الوادي السابيني بيستيكا Ustica على بعد خمسة وأربعين ميلاً من رومة . وبذلك أصبح في استطاعة هوراس أن يعيش في المدينة أو في الريف كما يشاء ، وأن يكتب كما يأمل المؤلفون

أن يكتبوا - في الوقت الذي تحلو لهم فيه الكتابة ، وبالعبادة والجهاد اللذين يحلو لهم أن يبذلواهما في كتابتهم (*) .

وأقام بعض الوقت في رومة يتمتع نفسه بحياة من يتسلى بمشاهدة العالم المسرع المنقطع . وكان يختلط بجميع طبقات الناس ، ويدرس جميع الأصناف التي تتكون منها رومة ، ويفكر في حماقات العاصمة ورذائلها وهو سرور سرور الطبيب إذا كشف علة المريض . وقد وصف بعض تلك الأصناف في كتابين من كتب هجوه (٣٤ ، ٣٥ ق . م) ، هذا فيما أولاً - حدو اوسليوس Lucilius ، ثم خفف فيما بعد من حدته وأصبح أكثر مما كان تسامحاً . وكان يطلق على هذه القصائد اسم المواعظ Sermones - وإن لم تكن مواعظ في أية صورة من الصور ، بل كانت أحاديث خالية من التكلف والصناعة ، وكانت أحياناً محاورات ودية خاصة في أشعار سداسية الوزن تكاد لغتها أن تكون هي اللغة العامية .

وقد اعترف هو نفسه بأنها نثر في كل شيء عدا الوزن ، « لأنك لا تستطيع أن تطلق اسم الشاعر على رجل يكتب كما أكتب أنا أحياناً أقرب ما تكون إلى الكلام المنثور » . ونحن نلتقي في هذه الأشعار اللاذعة بالأحياء من رجال رومة ونسائها ، ونستمع ، إليهم يتحدثون كما يتحدث الرومان : فلسنا نجد فيها رعاة غرجيل وزرّاعه وأبطاله ، ولا فساق أو فدا الخرافين وبطلاته ، بل نشاهد العبد الوقح البديء ، والشاعر المزهو بنفسه ، والمحاضر ذا الألفاظ الطنانة ، والفيلسوف الشره ، والثرائز الممل ، والسامى الحريص على المال ، ورجل الأعمال ، والحاكم ، ورجل الشارع العادي ، فنشعر أننا نشهد آخر الأمر رومة الحقّة . فها هو ذا هوراس يضع في قصائده لمن يشاء

(*) وقد كشف المنقبون عن خيمة هوراس في عام ١٩٣٢ ، فإذا هي تشمل بيتاً ريفياً خميسياً ، يبلغ طوله ٣٦.٣ قدماً وعرضه ١٤.٢ ، به أربع وعشرون حجرة وثلاث برك للاستحمام ، بوعدة أبواب مزينة بالفسيفساء ، وحديقة واسعة يحيط بها رواق مستوف في خارجه سور . ومن وراء هذا البيت ضيعة فسيحة يعادل فيها عشرة عبيد وخمس أسر من المستأجرين (١٢٨) .

أن ينقب عن آثار الأقدمين القواعد التي يجب أن يسير عليها من يريد النجاح في هذه اللعبة التي تصطرع فيها الغيلان من الناس ، ويضعها ، في صورة مرحة ولكنها مهلكة قاتلة (٢٩) . وهو يسخر من النهمين الذين يملثون بطونهم بشهى الطعام ، ولكنهم لا يستطيعون المشى على أرجلهم لأنهم مصابون بالرثية (٣٠) ، ويذكر من « يمتدح الأيام الماضية » بأنه إذا جاءه إله ليعبده إلى تلك الأيام أبي وتمنع (٣١) ، ويقول إن أحسن ما في الماضي هو علم الإنسان أنه لن يضطر إلى أن يحيا مرة أخرى . وهو يعجب كما يعجب لكريشوس من ذوى الأرواح القلقة الذين إذا كانوا في المدن تاقوا إلى سكنى الريف ، فإذا سكنوا الريف تاقوا إلى المدن ، والذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بما عندهم ، لأن من الناس من عنده أكثر منهم ؛ والذين لا يقنعون بزوجاتهم ويهيمون بخيالهم المفرط في العظمة وفي الحقارة معا بجمال غيرهن من النساء اللاتي أصبحن في نظر غيرهم من الرجال ولا جمال لهن . ويختتم نصائحه بقوله إن جنون المال هو مرض رومة القتال ، ويسأل من يقضى أيامه في جمع الذهب : « لم تسخر من تنتلس لأن الماء يتعد عن شفثيه الظامثين على الدوام ؟ ليس عليك إلا أن تبدل الأسماء فتطبق القصة عليك أنت (٣٢) » ثم يهجو نفسه أيضاً ؛ فهو يصور عبده يقول له في وجهه إنه ، وهو الداعى إلى حسن الخلق ، رجل أحق حاد الطبع لا يعرف قط ما يدور في عقله أو ما يهدف إليه ، وإنه عبد شهواته بكل إنسان آخر . وما من شك في أنه يوصى نفسه ، كما يوصى غيره ، بسلوك الطريقة الوسطى الذهبية إذ يقول : « إن للأشياء حداً ومقياساً (٣٤) » لا يقصر الرجل الذكى عنه ولا يتجاوزه . وهو في بداية كتاب المهجاء الثانى يشكو إلى صديق له أن المجموعة الأولى قد انتقدت أشد النقد ، فقيل إنها مفرطة في الخشونة وفي الضعف ، ثم يستنصح الصديق فيقول له : « استرح » فيعرض عليه الشاعر بقوله : « ماذا ؟ ألا أكتب الشعر قط ؟ » فيجبه « نعم » فيقول : « ولكنى لن أستطيع النوم (٣٥) » .

وكان خيرا له أن يعمل بهذه النصيحة إلى حين . وكان كتابه الثاني المسمى
ردود الغناء Epodes (٢٩ ق . م) أقل كتبه شأنا . فأشعاره خشنة مؤذية
للسمع نخالية من الشهامة ، بعيدة عن الذوق ، بذئثة في الأمور
الجنسية ، كل ما يستطيع الإنسان أن يقوله في وصفها إنها تجربة في
الأوزان الشعرية ذات المقاطع المتعاقبة منبورة وغير منبورة ، وهي المقاطع
التي سار عليها أركلوكس Archilodus . ولعل أشمزازة من « دخان رومة
ومالها وضجيجها » (٣٦) قد زاد حتى أمر نفسه ؛ ولعله لم يطق صبرا على
ضغط السوق الجهال ذوى التفكير الخبيث . وهو يصور نفسه متدفقا ومدفوعا
بين أراذل العاصمة ، وينادى قائلا : « أيها البيت الريفى ! متى أراك ؟ متى
أستطيع وأنا بين كتب الأقدمين تارة ، وأستمع بالنوم والفراغ تارة أخرى ،
أن أتجرع النسيان الحلو لمتاعب الحياة ؟ متى يقدم لى صحاف الفول إخوان
فيثاغورس نفسه ، ومعها الخضر المخلوطة باللحم السمين ؟ آه ، أيها الليالى
والولائم القدسية ! » (٣٧) ثم قصرت فترات إقامته فى رومة ؛ وصار يقضى
كثيراً من وقته فى بيته السيبى الريفى حتى شكوا أصدقائه وشكوا ماسيناس
نفسه بأنه « اقتطعها من حياته » . ولكن الحقيقة أنه بعد أن عانى حر المدينة
وعثرها وجد فى الهواء النقي والعمل الرتيب الهادئ ، والعمال السذج فى
ضيعته بهجة تطهره من أدران المدن . هذا إلى أنه كان وقتئذ ضعيف
الجسم ، وأنه كان يعيش على الأكثر ، كما يعيش أغسطس ، على الخضر
وحدها . وفى ذلك يقول : إن فيما أملكه من مجرى الماء النقى وأفدنة
قليلة من الأشجار ، ووثوقى من أنى سأجنى محصولا من الحب ، إن فى
هذا لسعادة دونها سعادة سيد أفريقية الحصبة ونعيمها البراق » (٣٩) . وإن
حب الريف ليجد فى غيره من شعراء عهد أغسطس من يعبر عنه تعبيرا
حماسيا نادر الوجود فى أدب اليونان .

ما أسعد من يعيش بعيدا عن قلق الأعمال ومتاعها .

كما كانت تعيش أقدم شعوب العالم .

يفلح بشرانه الأرض التي ورثها عن أبيه .

وليس عليه دين . . .

ما أحلى النوم تحت شجرة السنديان القديمة .

والنهر يجري بين جسريه العالين .

وطيور الأيكة تغرد .

والماء يتدفق من العيون .

يدعو الإنسان للنوم الهنيء ! (٤٠)

* * *

وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن الذي ينطق بهذه الأبيات مراب من أهل المدن ، ينطقه بها هوراس في سخرية يمتاز بها عن كثيرين من الشعراء ، وأن هذا المرابي بعد أن ينطق بها لا يلبث أن ينساها ويفقد نفسه بين أكوام نقوده .

وأكبر الظن أن هذه المرابض الهادئة هي التي كان يكدح فيها كدح السعداء المجدين « (*) » في تأليف هذه الأغاني التي يعلم أن ذبوع اسمه أوخول ذكره موقوف عليها . لقد مل الأشعار السداسية الوزن ولم يعد بطربه انسجام أوزانها المقيسة المحددة ، أو التي تقتطع من آخر البيت لضرورة الشعر كأنها جُزّت بمقصلة . وكان قد استمتع في شبابه بالأوزان الدقيقة المرحة التي رآها في شعر ساپفو Sappho والكيوس Alckeus ، وأركلوكس Archilochus ، وأنكريون Anacreon ، فأراد الآن أن ينقل هذه الأوزان « السابفية » والألكية ، والتفاعيل المركبة من مقطعين ومن أحد عشر مقطعا ، إلى صورة الشعر الغنائي الروماني ، وأن يعبر عن آرائه في الحب والخمر ، والدين ، والدولة ، والحياة والموت في مقطوعات جديدة منعشة للنفس جامعة رصينة التركيب ، قابلة للتلحين ،

(*) هذه هي العبارة العجيبة الموفقة التي وصف بها بترونيوس هوراس (١٤) .

معقدة تعقيداً يتطلب حلها الجهد الكثير . ولم يكن يكتب هذه الأشعار لذوى العقول الساذجة التي تريد أن تمر بها مرّاً سريعاً دون أن تبذل في إدراكها أى مجهود ؛ والحق أنه قد حذر أمثال هؤلاء في مستهل المجموعة الثالثة من الإقدام على قراءتها فقال :

« إني أبغض السوقة النجسين وأجنهم . صه ! أنا ، كاهن ربات الشعر ، أغنى للعداري والشباب أغاني لم يسمعها أحد من قبل » .
ولو أن العداري قد عنين بشق طريقهن وسط أقوال هوراس ورغباته المقلوبة لارتعن وسررن مما في أغانيه من أبيقورية مهذبة مصقولة . فالشاعر يصور مسرات الصداقة ، والطعام والشراب ، والمغازلة ، وإن المرء ليصعب عليه أن يستدل من هذه الترانيم على أن كاتبها رجل زاهد لا يأكل إلا قليلاً ولا يشرب إلا أقل . ثم يسأل الشاعر نفسه (قبل أن يسألها قارئ هذه الصفحات) : « لم نشغل أنفسنا بالسياسة الرومانية وبالخروب في الأقاليم النائية ؟ ولم نعبى هذه العناية كلها بتدبير أمور المستقبل الذي يسخر من تدبيرنا(*) . إن الشباب والجمال يماننا مساً ويمران بنا مرّاً سريعاً فلنستمتع بهما الآن » ، مضطجعين إلى شجرة الصنوبر ، وغدائرنا الشمطاء متوجة بالأزهار ومعطرة بالناردين السورى^(٤٢) . وبيننا نحن نتحدث هذا الحديث يمر الوقت الحسود وينقضى ، فلنغتتم الفرص « ولنختطف الأيام Carpe diem^(٤٣) . ويتلو الشاعر أتماء طائفة من النساء الخليعات اللاتي يقول إنه أحبهن : لالاچ ، جلسيرا ، تثيرا ، إيانشا ، رستارا كنديا ، ليسى ، بيرها ، ليديا ، تندارس ، كلو ، فليس ، مرتال . ولا حاجة بنا إلى أن نصدق كل ما يدعيه من ذنوب يقول إنه ارتكبها ، فقد كانت هذه الأقوال وقتئذ دعاوى أدبية يكاد يفرضها شعواء تلك الأيام على أنفسهم فرضاً ؛ وشاهد ذلك أنا نجد أولئك السيدات أنفسهن في خدمة

(*) « وتقدرن فتضحك الأقدار » . (المترجم)

أقلام غير قلمه قبل ذلك الوقت . ولم يكن أغسطس الذي تاب وقتئذ
وأنا لنينخدع بهذه الضلالات الشعرية ، فقد كان يسره أن يجد بينها
تعظيماً لحكمه وثناء عليه ، وعلى انتصاراته ، وأعوانه ، وإصلاحاته
الأخلاقية ، وعلى السلم التي بسط لواءها في أيامه . وقد ألف هوراس
أغنيته المشهورة في الشراب Nunc ets bibendum (٤٤) حين بجاءته الأنباء
بأن كليوباترة قضت نجها ، وأن أغسطس استولى على مصر ، فقد كان
لهذا النبأ وقع عظيم حتى في نفس هذا الشاعر السوفسطائي الذي سر من
انتصار الإمبراطورية واتساع رقعتها إلى حد لم تبلغه قط من قبل . وهو
يحذر قراءه من الاعتقاد بأن القوانين الجديدة يمكن أن تحل محل الأخلاق
القديمة ، وبأسف لانتشار الترف والزنى ، والحلاعة ، والعقائد المنحطة
الفاسدة ، ويقول مشيراً إلى الحرب الأخيرة : « وأسفا على ما أصابنا
من جروح وما ارتكبنا من جرائم ، وعلى من مضوا من إخوتنا صرعى
في الميدان ! وهل ثمة شيء قد اشمأزت منه نفوسنا نحن أبناء هذا الجيل ؟
وأى ظلم لم نرتكبه ؟ » (٤٥) ويقول إن رومة لن تنجو إلا بالرجوع إلى
الأساليب البسيطة وإلى الثبات الذي كان شعار الأيام الحالية . وهكذا
نرى الشاعر المتشكك الذي كان من الصعب عليه أن يؤمن بأى شيء يخفى
رأسه الأشيب أمام النصب القديمة ، ويقر أن الناس يهلكون إذا لم تكن لهم
أساطير يؤمنون بها ، ويسخر قلمه لخدمة الآلهة المرضى الضعاف .

وبعد فليس في أدب العالم كله ما يشبه هذه القصائد تمام الشبه - فهي رقيقة
وقوية ، وفيها تأنق ورجولة ، وحذق وتعقيد ، تخفى ما فيها من فن بالنفن البالغ
درجة الكمال ، وتخفى ما استلزمته من جهد بما يبدو عليها من يسر وسلاسة .
فهى موسيقى من طراز غير طراز فرجيل ، ذلك أن موسيقاها أقل من موسيقى
فرجيل عذوبة في النغم وأكثر منها تعقلاً ، وهى لم تكتب للشبان والعدارى بل
كتبت للفنانين والفلاسفة . وليس في القصائد كلها شيء من الانفعال
أو التحمس ، أو « اللفظ المنمق » ؛ بل الألفاظ كلها سهلة حتى في الحمل المقابوة

التي يجب أن يكون أولها آخرها . ولكن في الأغاني الكبرى كبرياء وجلالا
في التفكير ، حتى ليخيل إليك وأنت تستمع إليها أن إمبراطوراً هو الذي
يتحدث وأنه لا يتحدث بالفاظ من حروف بل من برنز :

لقد أقمت نصباً أبقى على الزمان من البرنز ،

وأعلى من قمة الأهرام الملكية ؛

لا تستطيع العواطف الهوج أن تحطمه .

ولا ريح الشمال الضعيفة ، ولا كرسنين .

التي لا عداد لها . ولا مر الزمان السريع .

إني لن أموت الميتة الكبرى .

وأغفلت الجواهر التي هجاها هوراس أغانيه ، وشهرها النقاد ووصفوها
بأنها مملعة متكلفة ، وندد المتزمتون بما فيها من أغاني الحب ، أما أغسطس
فوصف القصائد بأنها قصائد خالدة ، وطلب إلى الشاعر أن يتبعها بمجموعة
رابعة تصف أعمال دروسس وتيبيريوس في ألمانيا ؛ واختار هوراس
لكتابه الأناشيد « القرنية » يصف فيها المباريات القرنية . وأجابه الشاعر
إلى ما طلب ولكنه لم يجد من نفسه الإلهام الذي يمكنه من تنفيذ هذه
الرغبة ؛ ذلك بأن الأغاني قد استنفدت كل جهوه ، ولهذا رجع في كتابه
الأخير إلى الشعر السداسي الأوتاد الذي كتب به كتبه في الهجاء ، والذي
هو أليق الأوزان بالحديث ، فكتب به رسائله ، وهي أشبه بحديث ينطق
به صاحبه من مقعد مريح . وكان هوراس يريد على الدوام أن يكون
فيلسوفاً ، وقد غلبت عليه هذه النزعة في تلك الرسائل ، فاسترسل في
الحكم حتى في أثناء ثرثرته . وإذا كان الفيلسوف شاعراً مبتأً وفقهاً محتضراً ،
فقد كان هوراس وهو شيخ في الرابعة والخمسين من عمره قد نضجت
سنه للبحث في طبيعة الله ، والإنسان ، والأخلاق ، والأدب والفن .

وكتبت أشهر رسالة من هذه الرسائل كلها - وهي المعروفة لدى الققاد باسم « فن الشعر » إلى أدبيزونس Ad Pisones - وهم أفراد غير معروفين معرفة أكيدة من عشيرة پيزو Piso . ولم تكن هذه رسالة بالمعنى الحقيقي للرسائل ، بل كانت نصيحة قصيرة من صديق إلى صديق يبين له فيها طريقة الكتابة ، يقول له فيها : عليك أن تختار موضوعاً يتفق مع مواهبك ، واحذر أن ينطبق عليك المثل القائل تمخض الجبل فولد فأرة(*) (٤٧) ؛ والكاتب المثالي هو الذى يعلم ويسلى فى وقت واحد ، « ومن يمزج النافع بالسار يكسب جميع الأصوات (٤٨) » . وتجنب الألفاظ الجديدة ، والعتيقة المهملة ، والمسرفة فى الطول . وأوجز بالقدر الذى يجيزه وضوح معانيك ، وامض مسرعاً إلى لباب الموضوع . وإذا كتبت الشعر فلا تظن أن العاطفة هى كل شيء ، نعم إنك إذا شئت أن يحس قارئك بعاطفة ما فلا بد لك أنت أن تحس بها (٤٩) ، ولكن الفن غير الشعور ، إنه الصورة التى يعبر بها عنه (وهنا أيضاً يتحدى الأسلوب الاتباعى الأسلوب الإبداعى (**)) ، ولكى تصل إلى حسن الصيغة ، عليك أن نواصل دراسة آداب اليونان ليلاً ونهاراً ؛ ولكن ما تمحوه من كتابتك قدر ما تثبته أو قريباً منه .

« واعرض ما تكتبه على ناقد قدير وحاذر من أصدقائك ، فإذا اجتازت

(*) ليس فى ترجمة هذا المثل شيء من التصرف بل هى ترجمة حرفية للعبارة الإنجليزية

Labouring like a mountain and producing a mouse

ولعل العبارة الإنجليزية هى الأخرى ترجمة حرفية للمثل اللاتينى (المترجم).

(**) كاد الناس ينسون هوراس فى العصور الوسطى ، ولكنه استعاد منزلته فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهما عصر العقل والإتباع فى الزمن الحديث ، حين عمد كل سياسى وكل كاتب وخاصة فى إنجلترا إلى نثر عبارات الشاعر وترديدها فى صورة ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ولقد أعاد بوالو Boileau فى كتابه الفن الشعرى L'art poétique كتاب هوراس Ad Piones إلى الوجود ، وكان هو المشكل والمثبط للمسرحيات الفرنسية حتى زمن هوجو . وحاول پوپ Pope فى « مقاله فى النقد » Essay on Criticism أن يضعف من قوة الأدب فى إنجلترا بالطريقة عينها ولكن بيرن قضى على كل ما كان لپوپ من أثر فى هذه الناحية .

كتابتك هذه المراحل كلها ، فأخفها ثمانى سنين ، فإذا لم تجد بعدئذ إنك قد أفدت من نسيانها فانشرها ، ولكن اذكر على الدوام أنها لن يعيدها إلا الزمن وحده . وإذا كتبت مسرحيات فلتجعل الأعمال لا الأقوال . هي التي تقص القصة ، وتصور الأشخاص . ولا تمثل الرعب على المسرح ، والزمن وحدة الأعمال والزمان والمكان ، واجعل القصة قصة واحدة ، تقع حوادثها في زمن قصير وفي مكان واحد . وادرس الحياة والفلسفة ، لأن الأسلوب مهما بلغ لا قيمة له من غير الملاحظة والفهم . كن جريئاً في المعرفة . وعمل هوراس نفسه بكل هذه القواعد إلا قاعدة واحدة - فهو لم يتعلم البكاء ؛ ذلك أنه لم يكن قوى الشعور ، أو أن شعوره ، قد اختنق فصمت ، ولذلك لم يسم قط إلى ذلك الفن الأعلى الذى يجسم الإخلاص فى العطف أو « العواطف التى يذكرها أصحابها فى هدوء » . يضاف إلى هذا أنه كان مسرفاً فى تمجيد المدن ، ولقد كان قوله : « Nil admirari تعجب بشيء قط (٥١) » نصيحة غير قويمة ، لأن الشاعر الحق يجب أن يعجب بكل شيء حتى ولو كان كشروق الشمس أو منظر الشجر يحويه كل يوم . وكان هوراس يلاحظ الحياة ويرقبها ، ولكنه لم يكن يتعمق فى هذه المراقبة ، وقد درس الفلسفة واحتفظ على الدوام « باعتدال عقله » ولذلك لم يسم شيء من أغانيه فوق المرتبة الوسطى (٥٢) . وكان يعظم الفضيلة تعظيم الرواقين ، ويحترم اللذة احترام الأبيقوريين فيسأل نفسه « أى الناس هو الحر إذن ؟ » ثم يجيب كما يجيب زينون : « هو الرجل الحكيم ، سيد نفسه ، الذى لا يرهب الفقر ولا الموت ولا الأغلال ، والذى يتحدى شهواته ويزدرى بالمطامع والذى هو كل فى نفسه (٥٣) » . ومن أنبل قصائده قصيدة تضرب على نغمة رواقية وتقول :

« إذا كان الرجل عادلاً حازماً فقد تتصدع الدنيا كلها من حوله وتتساقط فوق رأسه ، وتجده تحت حطامها غير هباب ولا وجل (٥٤) » . ولكن هوراس رغم هذا كله يلقب نفسه بأمانة جذابة : خنزيراً من حظيرة أبيقور (٥٥) .

وهو كأبيقور يقدر الصداقة فوق الحب ، وكفريجيل يمتدح إصلاحات
أغسطس ، ويعيش حياته كلها عزبا . وقد بذل كل ما في وسعه دعيا
إلى الدين ولكنه كان لا دين له ، وكان يشعر أن الموت يقضى على
كل شيء (٥٦) .

وقد أظلمت أفكاره أيامه الأخيرة - وأوتى حظه من الأسقام ، فكان
معموداً مصاباً بالنقرس وبغيره من الأمراض . ومن أقواله في رثاء حاله :
« إن السنين وهى تمر تسلبنا كل مسراتنا واحدة بعد واحدة (٥٧) » . ويقول
لصديق آخر : « واحسرتاه يابستيوس إن السنين تمر بنا سراعا ؛ ولن
تستطيع تقوانا أن تمنع عنا غضون أجسامنا ، أو تقدم أعمارنا ، أو الموت
الذى لا يقهر (٥٨) » . وقد ذكر فى قصيدته الهجائية الأولى كيف كان يأمل
إذا حانت منيته أن يفارق الحياة الدنيا راضيا « كالضيف الذى نال من
الوليمة كفايته (٥٩) » . وها هو ذا الآن يقول لنفسه : « لقد لعبت ما شئت
أن تلعب ، وأكلت ما شئت أن تأكل ، وشربت ما شئت أن تشرب .
وقد آن أن ترحل (٦٠) » . وقد انقضت خمس عشرة سنة مذ قال لما سيناس
إنه لن يطول أجله كثيرا بعد رجل المال (٦١) . وقد مات ماسيناس فى
عام ١٨ ق . م وتبعه هوراس بعد بضعة أشهر ، وأوصى بأمله إلى
الإمبراطور ودفن بجوار قبر ماسيناس .

الفصل الخامس

ليثى

لم يظفر النثر في عهد أغسطس بمثل ما ظفر به الشعر من مؤلفات عظيمة قيمة ، فقد اضمحلت الخطابة بانتقال التشريع والقرارات ، في الواقع إن لم يكن في الشكل ، من مجلس الشيوخ والجمعيات إلى حجرات الزعيم السرية . وظل العلم يجرى في مجراه الهادى " تحميه من العواصف والأحداث أغراضه ومصالحه الخيالية ، ولم ينتج العصر كله آية أدبية خالدة إلا في التاريخ . وكان صاحب هذه الآية الخالدة تيتس ليثيوس Titus Livius :

ولد تيتس في پتافيوم Patavium (پدوا Padua) في عام ٥٩ ق . م . ثم وفد إلى العاصمة ، وأكب على دراسة البلاغة والفلسفة ، وخص السنين الأربعين الأخيرة من حياته بكتابة تاريخ لرومة (٢٣ ق . م - ١٧ م) . وذلك كل ما نعرفه عن هذا المؤرخ « فوئخ رومة لا تاريخ له » (٦٣) . وكان موطنه الأصلي ، كموطن قرچيل ، هو إقليم الپو ، وقد احتفظ على الدوام بفضائل الأقدمين وبساطتهم وتقواهم ، ثم نشأ فيه احترام قوى للمدينة الخالدة - لعل سببه ما كان يصله عنها من أبناء وهو بعيد عنها . وقد وضع خطة كتابه على أساس واسع عظيم ، وقلز له أن يتمه وإن لم يصلنا من « كتبه » البالغة مائة واثنين وأربعين كتاباً إلا خمسة وثلاثون . وإذ كانت هذه الكتب الباقية تحتويها ستة مجلدات فإن في وسعنا أن نقدر ضخامة هذا المؤلف . ويلوح أن الكتاب قد ظهر أجزاء متتابعة لكل منها عنوان خاص ، ويجمعها كلها عنوان واحد هو « من أسس المدينة Ab urbe condita » . وكان في وسع أغسطس أن يتغاضى عن ميوله الجمهورية وأبطاله الجمهوريين لأن روح الكتاب الدينية والأخلاقية والوطنية كانت تتفق كل الاتفاق مع خطط

الإمبراطور السياسية . ومن أجل ذلك اتخذ ليفي صديقاً له وشجعه ليجعل منه فرجيلاً نائراً يبدأ عمله من حيث تركه الشاعر . وقد فكر ليفي في يوم من الأيام وهو في وسط مرحلته الطويلة التي بدأت في عام ٧٥٣ ق . م أن ينقطع عن العمل بحجة أنه نال ما يبتغيه من الشهرة الخالدة ؛ ثم واصل العمل لأنه على حد قوله وجد نفسه قلقاً حائراً حين امتنع عن الكتابة .

وكان المؤرخون الرومان يرون أن الشعر ولد هجين من أبوين هما البلاغة والفلسفة ! وإذا كان لنا أن نصدقهم فإنهم كانوا يؤرخون ليوضحوا المبادئ الأخلاقية بالقصص البليغة ، أي أن يجلوا المغزى الخلقى بقصة . وقد نُشئ ليفي ليكون ممثلاً ، ولكنه حين وجد الخطابة خطيرة معرضة للنقد ، « اتجه نحو التاريخ » كما يقول تين Taine « لكني يظل كما كان خطيباً » (٦٥) . وبدأ كتابه بمقدمة جافة ندد فيها بما كان شائعاً في عصره من فساد وترف وخنوثة ؛ وقال إنه دفن نفسه في الماضي لكي ينسى مساوىء الحاضر ، « الذي لا نطبق ما ابتلاتنا من أمراض كما لا نطبق لها علاجاً » ، ثم يقول إنه سيأخذ التاريخ سبيلاً لتصوير الفضائل التي رفعت من شأن رومة . وكانت سبباً في عظمتها ، وهي اتحاد الأسرة وقيادتها ، وتقوى الأبناء ، والعلاقة المقدسة بين الناس والآلهة في كل خطوة من الخطوات ، وقديسية ما يقطعه الناس من عهود وضيبط النفس والوقار إلى أقصى حد . ويقول إنه سيجعل رومة الرواقية هذه أمة نبيلة كريمة الأخلاق إلى حد يرى الناس معه أن فتح بلاد البحر الأبيض المتوسط كان من الأعمال التي تحتّمها الأخلاق الكريمة ، أو أنها أمر إلهي وشريعة مقدسة نزلت على ما في الشرق من فوضى وما في الغرب من همجية ، وسيجعل ما نالته رومة من ظفر نتيجة لما تحلى به أهلها من كريم الخلق ، كما عزاه بوليبيوس إلى نظام حكومتها الصالح الرشيد .

وأكبر ما في الكتاب من عيوب إنما يرجع إلى هذه النزعة الأخلاقية

ففي الكتاب كثير من الشواهد الدالة على أن مؤلفه رجل ينصع لحكم العقل ، وكان احترامه للدين احتراماً مسرفاً إلى حد يكاد يحمله على الإيمان بكل خرافة ، ويملاً صحف كتابه بالفأل والطيرة والتنبؤ بالغيب حتى انشعر ونحن نقرأها أن الذين يدبرون الحوادث ويقومون بالأعمال هم الآلهة كما نشهد ذلك في أشعار فرجيل . ولنا ننكر أنه يعبر عن شكه فيما يروى من أساطير تاريخ رومة الأول ، ويتسم حين يذكر من الروايات أقلها احتمالاً ، ولكنه حين يواصل الكتابة لا يفرق بين الأساطير والتاريخ الحقيقي ، ويسير وراء أسلافه بلا تمييز كبير بين الباطل من أقوالهم والصحيح ، ويقبل الأفاصيص والروايات الخيالية التي اخترعها المؤرخون الأولون لمجدوا بها أسلافهم^(٦٦) .

وقلما يعنى بالرجوع إلى المصادر الأصلية أو الآثار ، ولا يشغل نفسه قط بزيارة الأماكن التي وقعت فيها أهم الحوادث . وتراه أحياناً يعتمد على شرح صحائف كاملة من بوليبيوس^(٦٧) . ويلجأ إلى طريقة القساوسة القديمة طريقة الحوليات ، فيقص الحوادث التي وقعت في عهد كل قنصل من القناصل ، ولهذا فإنك إذا ضربت صفحاً عما فيه من بحوث أخلاقية لن تجد فيه أثراً للتعليل الصحيح وربط النتائج بأسبابها ، بل كل ما تجده فيه سلسلة متتابعة من الأحداث الرائعة . وهو لا يفرق بين الآباء الأجلاف الأولين الذين عاشوا في عهد الجمهورية المبكر وبين أشرف عصره ، أو بين السوق الأشداء الذين أنشئوا الديمقراطية الرومانية والغوغاء الأذنياء الذين قوضوا أركانها ، وهو يتحيز للأشراف على الدوام .

ولقد كان السر الحقيقي في عظمة ليفي هو العزة الوطنية التي تجعل رومة في نظره محقة على الدوام . وهذا السر هو الذي حباه بالسعادة الدائمة في أثناء كدحه الطويل ، ولهذا السبب فإننا قلما نجد كاتباً نفذ خطة واسعة كخطته يمثل ما نفذها هو في أمانة أشعرت قراءه الأقدمين ولا تزال تشعرنا نحن بعظمة رومة وبما قدر لها في عالم الغيب من مصير . ولقد كان هذا الشعور

(٧ - ج ٢ - مجلد ٣)

بعظمة رومة هو مصدر ما في أسلوب ليفي من نشاط ، وما في أشخاصه من قدرة ، وما في وصفه من بهجة وقوة ، وما في نثره من انسجام رائع جليل وإن الخطب التي اخترعها من عنده وبها في تاريخه لتعد آيات في الخطابة أصبحت من بعده نماذج تحتذى في المدارس ، وإن القارئ ليسحر ليه ما يتخلل الكتاب كله من أخلاق كريمة ؛ فليفى لا يعمد قط إلى الصخب والضجيج ، ولا يقسو في أحكامه على الناس ، وعطفه على الدوام أوسع من علمه وأعمق من فكره . وهذا العطف يفارقه حين يروى قصة هنيبال ، ولكننا لا يسعنا إلا أن نغفر ذلك له ، وهو إلى هذا يكفر عن هذا الذنب بتتابع حوادث القصة وروعيتها التي تصل إلى ذروتها حين يصف الحرب الپونية الثانية .

ولم يكن قراؤه يهتمون بما في كتابه من أخطاء ، ومن نقص في الدقة ، ومن تحيز ، وكانوا يحبون أسلوبه وقصصه ، ويبتهجون بالصورة الواضحة التي صور بها ماضيهم . وكانوا يعدون كتابه « من أسس المزيية » ملحة منثورة ومن أنبل ما خلفه عصر أغسطس ، والزعة التي سادت ذلك العصر . ولقد ظل كتاب ليفي يلون أفكار الناس عن تاريخ رومة وأخلاق أهلها ثمانية عشر قرناً كاملة تبدأ من أيامه . وحتى الذين كانوا يقرءون كتابه من أهل البلاد الخاضعة لسلطان الرومان قد تأثروا بهذا السجل الضخم للفتوح التي لم يكن لها نظير من قبل ، وبالأعمال الضخمة الجبارة التي قام بها رجالها . ويقص بلني الأصغر قصة رجل أسباني تأثر بكتاب ليفي تأثراً حمله على أن يسافر من قادس Cadiz إلى رومة لعله يلقاه فيها . فلما حقق رغبته وصل إلى لربه ، نسي كل ما عدا ذلك من الحقوق ، وعاد راضياً إلى موطنه عند المحيط الأطلنطي (٦٨) .

الفصل السادس

ثورة العاشقين

وظل الشعر في هذه الأثناء ينتشر وتعلو مكانته ، ولكن على غير ما كان يشتهى أغسطس . ذلك أن الفنانين العظماء ، أمثال فرجيل وهوراس ، هم وحدهم الذين يستطيعون قرض الشعر الجيد في الموضوعات التي تطلبها الحكومة ؛ فأما من كانوا أعلى من هذين الشاعرين قدرأ فإنهم لا ينصاعون إلى هذه المطالب ، وأما من كانوا أقل منهما شأنأ فإنهم لا يستطيعون إجابتها . وقد خضع مصدران من مصادر الشعر الكبرى - الدين ، والطبيعة ، والحب - إلى سلطان الإمبراطورية ، أما المصدر الثالث فقد ظل خارجا على سلطانها غير خاضع لأى قانون حتى في أغاني هوراس . ثم فر الشعر فرارأ بطيئأ على يدى تيبلس Tibullus وپروپرتيوس Propertius ، وثار ثورة سارت في طريق يحفه المزايد إلى خاتمة مفاجئة .

وتفصيل ذلك أن ألبیوس تيبلس (٥٤ - ١٩) خسر الأرض التي ورثها عن آبائه كما خسر فرجيل أرضه حين وصلت نيران الحرب الأهلية بلدة پدوم Pedum - قرب تيبور Tibur مسقط رأسه - وأنقذه مسالا من الفقر وأخذه مع حاشيته إلى بلاد الشرق ، ولكن تيبلس مرض في الطريق وعاد إلى رومة ، مغتبطا بنجاته من الحرب ومن السياسة ، فقد أمكنه ذلك من أن يصرف جهوده كلها في التغنى بعشق الفتيات والفتيان ، ونظم المراثى المصقولة على نمط يوناني الإسكندرية . وكتب الابتهاال المؤلف إلى دليا Dilia (وهو اسم لا نعرف عنه أكثر من هذا ولعله لم يقصد به فتاة بعينها بل كان يسمى به الكثيرات من عشيقاته) التي تجلس أمام بابها كالحارمة العنيدة (٦٩) ، يُذكرها كما ذُكرت كثيرات من الغانيات قبلها أن الشباب

لا يجيء إلا مرة ثم ينتضى مسرعاً خفية ، ولم يلق باله أن دلياً متزوجة ،
فقد أنام زوجها بأن قدم له نبيذاً مركزاً ، ولكنه استشاط غضباً حين فعل
به عاشقها الحديد ما فعله هو بزوجها (٧٠) : ولعل هذه الموضوعات العتيقة
لم تكن خليقة بإقلاق بال أغسطس ، أما الذي جعل تيبلس ، وپروپرتيوس
وأوقد مبغضين إلى حكومة تلتقى أشد الصعاب في وجود مجندين للجيش
فهو النزعة المؤثرة القوية المضادة للجندية ، والتي كانت تتصف بها هذه
العصبة المتحللة في حبها من جميع القيود . ذلك أن تيبلس يسخر من المحاربين
الذين يسعون إلى الموت في الوقت الذي يستطيعون فيه أن يغرروا بالنساء ،
ويتحسر على عهد زحل ويتصوره عهداً :

لم يكن فيه جيوش ، ولا حقد ، ولا حرب . . . فلم تكن حرب حين
كان الناس يشربون من أقذاح خشبية . . . أفاعطني الحب وحده ودع
غيري يذهب إلى الحرب . . . فالبطل هو الذي يدركه الكبر في كونه
المتواضع بعد أن وُلد له بنون ، فتراه يرعى الماشية وابنه يرعى الضأن ،
وزوجته الصالحة تسخن الماء لجسده المتعب . فلأعش حتى تصبح كل
شعرة من شعر رأسي ناصعة البياض ، وأحدث عن الأيام الخوالي كما
يتحدث الشيوخ» (٧١) .

أما سكستس پروپرتيوس (٤٩ - ١٥) فكانت أغانيه أقل بساطة وأقل
حناناً ، يزينها العلم أكثر مما يزين أشعار تيبلس ، وتمثلها فيما تحويه من أناشيد
الدعارة الهادئة . وقد ولد سكستس في أمبريا Umbria وتلقى العلم في رومة ،
وسرعان ما مال إلى قرض الشعر ، وضمه ماسيناس إلى ندوته على الإسكولين
Esquiline وإن لم يكن في القراء - إلا قلة ضئيلة منهم - من يستطيع أن
يستخرج أفكاره من أغوار حذلقته . وهو يصف في زهو وسرور الولايم التي
كانت تقام على شاطئ نهر التير ، حيث كان يجتسى نهر لزبس Lesbos في
كووس من صنع الفنانين العظام « وهو يجالس كأنه على عرش بين النساء

المرحات » ، يرقب السفن تجرى في النهر من تحته (٧٢) : وكان پروپرتيوس يتغنى بمدح الحرب من حين إلى حين ليطرب بذلك ولي نعمته وزعيمه ؛ أما حبيبته سنثيا Cynthia فكانت لها عنده نغمة أخرى ، فهو يقول لها : « ليم أنجب أبناء ليضحى بهم في الانتصارات البارثية Parthian ؟ لا ، لن يكون ولد من أبنائنا جندياً » (٧٣) ، وهو يؤكد لها أن كل ما في العالم من أمجاد عسكرية لا يعادل ليلة واحدة مع سنثيا (٧٤) .

وإذا أحصينا كل هؤلاء الأبيقوريين خفاف القلوب والأحلام ، الذين كانوا يقضون حياتهم بين الحب والصد كان بيليوس أفديوس نازو Pudius Ovidius Naso أنموذجهم السعيد وحامل لوائهم جميعاً . وكان مولده عام ٤٣ ق . م في سلمو Sulmo (سلوما) ، وهي بلدة في واد جميل من وديان الأبنين على بُعد تسعين ميلاً أو نحوها شرقي رومة . وكان يتخيلها من منفاه في سنه الأخيرة بلدة جميلة ذات كروم وغياض من شجر الزيتون ، وحقول من القمح ، ومياه جارية . وأرسله أبوه - وكان رجلاً ثرياً من رجال الطبقة الوسطى - ليدرس القانون في رومة ، ولكنه صدم حين سمع أن ابنه يريد أن يكون شاعراً . فأخذ يذكر للصبي ما لقيه هو من مصير محزن ؛ فقد مات هذا الشاعر - كما يقول أحسن الناس علماً بأخباره - فقيراً أعمى . وأثر هذا التحذير في أوغد فواصل دراسة القانون وارتقى حتى صار قاضياً في المحاكم البريتورية ، وأبى أن يتقدم ليكون كوسترا ، فحزن لذلك أبوه أشد الحزن (لأن هذا المنصب كان يؤمله لأن يكون عضواً في مجلس الشيوخ) ؛ وفضل أن يعتمد على دراسة الأدب وإلى الحب ، محتجاً بأنه لا يسعه إلا أن يكون شاعراً « ولثغت بالأوزان فجاءت الأوزان » (٧٥) .

وسافر أوغد على مهل إلى أثينة وإلى الشرق الأدنى وصقلية ، ولما عاد انضم إلى زمرة أكبر الناس مجوناً وخلاعة في العاصمة ، وكان ذا نصيب موفور

من الجمال ، والذكاء ، والعلم ، والمال ، فاستطاع بذلك أن يفتح جميع الأبواب المغلقة . وتزوج مرتين في شبابه ، وطلق زوجته ، ثم قضى بعض الوقت يرعى في المراعى العامة (*) ويقول : « فليجد غيرى مسراتهم في الماضي ، أما أنا فما أسعدنى إذ ولدت في العصر الذى توأم أخلاقه أخلاقى (٧٦) . وكان يسخر من الإنياذة ، ولم يفد منها إلا نتيجة واحدة ، هى أنه لما كان ابن الزهرة هو الذى أنشأ رومة فقد وجب أن تصبح مدينة الحب لتدل على تى أهلها وصلاحهم إن لم يكن ذلك لسبب اخر (٧٧) . وخابت لبه غاهر جميلة يسميها كورنا Corinna إخفاء لاسمها عن القراء ، أو لعل ذلك اسم يطلقه على كثيرات غيرها من النساء اللاتى وقع فى حبهن . وسرعان ما وجدت أشعاره المكشوفة فيها من ينشرها له ، فنشرت بعنوان الغزليات Amores فى عام ١٤ م ، ولم تلبث إلا قليلا حتى جرت على لسان كل شاب فى رومة حديثاً وغناء . ويقول هو فى ذلك : « إن الناس فى كل مكان يريدون أن يعرفوا من تكون كورنا هذه التى أنغنى بحبها » (٧٨) . وقد أضلهم هو فى مجموعة أخرى من الغزليات فى وصف الحب الخليط فقال :

« ليس الذى يثير عاطفتى الجمال الثابت ؛ بل إن ثمة مائة سبب تحفظ لى حبي ، فإذا رأيت فتاة جميلة ذات عنين ناعستين مطرقتين إلى حجرها اشتعلت نار الحب فى قلبى ، وأسرتنى بسداجتها . وإذا أبصرت فتاة خليعة ، اخترقت سهام لحاظها قلبى ، لأنها ليست قروية ساذجة ، ولأنها تقوى أملى فى أن أضمها إلى صدرى على فراشى الوثير . وإذا تمنعت وتظاهرت بالعناد والصلابة حكمت بأنها ستخضع لى لا محالة ، ولكنها ممعنة فى خداعها . وإذا كنت عالة ضليعة بما فى الكتب استهويتنى بشمائلك النادرة ... وتخطر

(*) يريد من غير زواج . (المترجم)

إحداهن الهويينا فأحنا لحسن خطاها ، وتخطو الأخرى بقوة ، ولكنها ترق
إذا طاف بها طائف الجلب . . . وإذا غنت فتاة بصوت شجي . . . خطفت
منها القبلات في أثناء الغناء ، وإذا ضربت الأخرى بأناملها الخفيفة على
الأوتار الشاكية - فنذا الذي لا يقع في حب هاتين اليدين الماهرتين ؟ وهذه
تأسرنى بحركاتها ، إذا ما حركت يديها في اتران وانسجام ، وتفننت في
ثنى خصرها الرقيق فتذكى النار في قلبي الذي تلهب فيه نيران الحب
لأقل الأسباب ضع هبوليتس Hippolytus في مكاني يصبح پرياپس
Priapus ! إني لثمنتني الطويلة القصيرة على السواء ، فكلماتهما تضمم
النار في قلبي وإني لأتقدم إليهما ضارحاً متوسلاً أن يستجيبا لحي (٧٩) .

واعتذر أو قد عن عدم التغنى بمجد الحرب ، وقال إن كيوبد Cupid
جاءه واختاس قدماً من شعره وتركه أعرج (٨٠) . وكتب مسرحية لم يعثر
عليها بعد وهي مسرحية صيربا Medea قوبلت بقبول حسن ، ولكنه كان
على العموم يفضل الشعر الغزلي أو كما يسميه هو « ظلال الزهرة الكسول » ،
ولا يرغب في أكثر من أن يسمى « المئشذ المعروف بأساليبه النافهة » (٨١) .
وأغانيه هي بعينها هي أغاني جماعة الترويدور سبقتها بألف عام كاملة ،
وموجهة مثلها للسيدات المتزوجات . وهي تجعل المغازلة أهم أعمال الحياة .
ويعلم أو قد كورنا كيف تتحدث إليه بالإشارات وهي مضطجعة على فراش
زوجها (٨٢) ، ويؤكد لها أنه سيظل وفياً لها أبد الدهر ، وأنه لن يزني
بغيرها أبداً : « فليست زير نساء يتنقل من هذه إلى تلك ويحب مائة امرأة
في وقت واحد » . ثم يحظى بها آخر الأمر ويكتب قصيدة ابتهاجاً بنصره ،
ويثنى فيها عليها لطول صدها عنه ، وينصحها بأن تعود إلى هذا الصد من
حين إلى حين ، حتى يدوم حبه لها أبد الدهر . ثم يخاصمها ويضربها ،
ويندم على فعلته ، ويحزن ويحن بحبها أكثر من ذي قبل ، ويفعل ما يفعله
رمبو فيتوسل إلى الليل أن يطول وإلى الفجر ألا يطلع ، ويرجو أن تتهب

ريح موآية فتحطم قطب عربة الفجر . وتخدعه كورنا كما خدعها ، ويستشيط هو غضباً حين يعرف أنها لا تجد فيما يقدمه لها في شعره من خشوع جزاء كافياً لحبها له ؛ وتقبله طالبة إليه أن يصفح عنها ولكنه لا يسامحها لما كسبته من حذق جديد في بث لواعج الهوى ، ويقول إن معلماً جديداً قد علمها هذا الحذق (٨٣) . وبعد بضع صفحات من الكتاب نجده يحب فتانين في وقت واحد كلتاهما جميلة حسنة الذوق في اختيار ملابسها ، ومهذبة ، مثقفة (٨٤) . ثم لا يلبث أن يساوره الخوف من أن يقضى عليه توزيع قلبه بين حبيبتيه ، ولكنه يقول إنه يسعده أن يخر صريعاً في ميدان الحب (٨٥) .

ولاقت هذه القصائد قبولا لا بأس به من المجتمع الروماني بعد أربع سنين من صدور قوانين الإصلاح اليوليوسية ، وظلت بعض الأسر العظيمة أمثال أسرة الفابين والكرفينين ، والپمپونيين تستضيف أو قد في بيوتها ؛ وازدهى الشاعر بما ناله من نصر فأصدر كتاباً في التغرير بالنساء سماه فن الغرام *ars amatoria* (م٢) يقول فيه . « لقد عينتني الزهرة معلماً للحب الرقيق » . وهو يحذر قراءه تحذيراً ينطوي على العفة والطهارة فيقول إن أمثاله يجب ألا تطبق إلا على الجوارى والسراى ؛ ولكن ما يفيض به الكتاب من تصوير للصدقات الوثيقة ، ومواعيد اللقاء السرية ، والرسائل الغرامية ، ومن هزل وفكاهة ، وخيانة أزواج ، وخدمات محتالات ماهرات ، كل هذا يوحى بأن الكتاب إنما يصور أحوال الطبقتين العليا والوسطى في رومة . وأراد أن لا تكون دروسه سريعة الأثر فوق ما يجب أن تكون فأضاف إلى رسالته الأولى رسالة ثانية في علاج الحب *Remedia Amoris* يقول فيها إن خير علاج من داء الحب هو العمل الشاق ، ثم يليه في القوة الصمد ، ويأتي بعدهما الغياب ، ومن المفيد أيضا أن تفاجئ حبيبتك في الصباح قبل أن تتم زينتها (٩٠) . ثم أراد آخر الأمر أن يوفق بين آرائه الأولى والثانية فأخرج رسالة ثالثة عنوانها : *Demedicamina faciei femininae* وهي رسالة شعرية في

أصباغ التجميل وأدهانه ، أخذ ما فيها عن اليونان . ولاقت هذه الرسائل الصغيرة رواجاً عظيماً ، انتشرت بسببه سمعة أوفيد السيئة في كل مكان ، ويقول في ذلك : « ما دامت شهرتي قد طبقت العالم كله فإنني لا يعنيني قط ما يقوله عني شخص أو شخصان » (٩١) ولم يكن وهو يقول هذا يعرف أن أحد هذين الشخصين الحقيرين هو أغسطس نفسه ، وأن قصائده قد أغضبت الزعيم ، وأنه يراها إهانة لحقت بالقوانين اليوليوسية ، وأنه لن ينسى هذه الإهانة حين تخطر الفصائح الإمبراطورية على بال الشاعر الغافل .

وفي السنة الثالثة بعد الميلاد تزوج أوفيد للمرة الثالثة ، وكانت زوجته الجديدة من أكبر الأسر الممتازة في رومة ، واستقر الشاعر ، وكان وقتئذ في السادسة والأربعين من عمره ، في حياته المنزلية الهادئة ، ويلوج أنه هو وزوجته قد تبادلوا الوفاء والإخلاص والهناءة في فابيا Fabia ، وفعلت به السن ما لم يفعل به القانون ، فأخذت نيران عواطفه وجعلت شعره جديراً بالاحترام . فروى في كتابه Heroides قصصاً عن حب شهيرات النساء أمثال پنلبي Penelope وفيلبرا Phaedra وديدو ، وأريدني Ariadne ، وسابفو ، وهلن Helen ، وهيرو Hero ، ولعله أسرف في طول هذه القصص حتى أمل ، لأن التكرار قد يجعل كل شيء حتى الحب نفسه مستمياً .

على أن مما يثير الدهشة حقاً في هذه القصص جملة على لسان فدرا تعبر فيها عن فلسفة أوفيد : « لقد حكم خوف بأن الفضيلة هي كل ما يهبنا اللذة » (٩٢) . ونشر الشاعر حوالي ٧ م أعظم مؤلفاته كلها وهو كتاب « التحول Metamorphoses » . ويتألف من خمسة عشر سفراً ، تقص في شعر سداسي الأوتاد تحول الجهاد والحيوان والناس والآلهة . وإذا كان كل شيء في الأساطير اليونانية والرومانية ، إلا القليل النادر ، قد بدل صورته ، فقد استطاع أوفيد بفكرته هذه أن يغترف من بحر الأساطير القديمة كلها من خلق العالم إلى تأليه قيصر . وكانت كتاباته هي القصص التي ظلت ذات شأن عظيم في برامج الكليات جميعها حتى الجيل السابق على جيلنا

هذا ، بل إن ثورة هذه الأيام لم تسمح بعد ذكرها من العقول : كقصص
عربة فيتون Phaethon's Chariot ، وبيراموس وثرزبي Pyramus & Thisbe
وإيرسيوس وأندرمدا Perseus & Andromeda ، وسرقة برسبرين The
Rape of Prosperine ، وأرثوزا Arethusa ، وميديا Medea ،
وديدالوس وأيكاروس Daedalus & Icarus ، وبوسيز وفليمون
Baucis & Philemon ، وأورفيوس ويورديس Orpheus & Eurydice ،
وأطلنطا Atlanta ، وفينوس وأدنيس Venus & Adonis وكثير غيرها .
هذا هو المعين الذي استمدت منه مئات الآلاف من موضوعات القصائد ،
والرسوم والتماثيل . وإذا كان لا بد للإنسان أن يواصل دراسة الأساطير
القديمة ، فإن أيسر السبل إلى دراستها أن يقرأ قصص هذا الحشد العظيم من
الآدميين والآلهة ، وهي قصص تروى بكثير من التشكك الفكه النزعة
الغزلية ، وللفن فيها أثر دائم عظيم يعجز عنه العايت غير القدير ، ولا يصل
إليه إلا من أوتي المقدرة والصبر الطويل . فلا عجب والحالة هذه أن
يعلن الشاعر الواثق من نفسه في ختامها أنه من الخالدين : « per saecula
omnia vivam سأعيش إلى آخر الدهر » .

وما كاد يفرغ من كتابة هذه العبارة الأخيرة حتى ترامى إليه أن
أغسطس قد أمر بنفيه إلى بلدة تومي Tomi الباردة الممجيبة الواقعة على
ساحل البحر الأسود وهي المعروفة الآن بقنسطنطة ، والتي لا تزال غير
محببة إلى غير أهلها . وتلك كارثة لم يكن الشاعر مستعداً لتحملها في مثل
سنه ، وكان قد أتم في هذا الوقت إحدى وخمسين عاماً ، وفرغ توماً ،
قبيل انتهائه من كتاب « التحول » ، من قصيدة من الشعر الجيد يثنى
فيها على الإمبراطور ويعترف فيها بأن سياسته قد نشرت لواء السلام
والأمن والرفاهية التي يستمتع بها الجيل الذي يعيش فيه أو قد . وكان
فوق هذا قد أتم نصف قصيدة تدعى فاستي Fasti وهي قصيدة تكاد تكون
من القصائد التقية تتحدث عما في السنة الرومانية من أعياد دينية . وكان يوشك

أن يجعل هذه القصيدة ملحمة يستمد موضوعها من التقويم الروماني ، لأنه استخدم في رواية قصص الدين القويم وفي تكريم هياكله وآلهته ما استخدمه في الأساطير اليونانية والغزل الروماني من أسلوب سهل واضح وعبارات وجمل رقيقة . وكان يرجو أن يهدى القصيدة إلى أغسطس ليشارك بها في إعادة الدين القويم إلى سابق عهده ، ولتكون بمثابة اعتذار منه عن سخريته بهذا الدين ، وإنكار لما فرط منه في حقه .

ولم يبين الإمبراطور في قراره أسباب نفيه ، وليس في مقدور أحد أن يعرف في هذه الأيام حقيقة هذه الأسباب . على أن ثمة إشارة بعيدة من الإمبراطور لأسباب هذا النفي ، فقد نفي في الوقت نفسه حفيدته يوليا وأمر بإخراج كتب أو قد من دور الكتب العامة . ويلوح أن الشاعر كان له بعض الشأن في مسلك يوليا الشائن ، سواء كان حظه فيه حظ الشواهد ، أو المشارك ، أو الفاعل الأصلي . أما هو نفسه فيقول إنه عوقب بسبب « خطأ » وقع فيه وبسبب قصائده ، ويذكر ما يوحى بأنه شهد على الرغم منه منظرًا غير لائق (٩٣) . وأجيز له أن يبقى في أثناء الشهور الباقية من عام ٨ م ينظم فيها شئوئه . وكان القرار مجرد إبعاد ، أخف من النفي ، يسمح له أن يحتفظ بأملكه ، ولكنه أقسى منه إذ يلزمه بالإقامة في مدينة واحدة . فلم يكن منه إلا أن أحرق كتاب التحول ، وإن يكن بعض القراء قد نقلوا صوراً منه واحتفظوا بها لأنفسهم . وابتعد عنه معظم أصدقائه (٩٤) وعرض بعضهم أنفسهم لأشد الأخطار ببقائهم معه إلى ساعة رحيله ، وشجعته زوجته وأعانتته على تحمل محنته بما أظهرت له من الحب والإخلاص ، وإن لم تسافر معه إطاعة لأمره . وإذا استثنينا هذه المظاهر القليلة فإن رومة بأسرها لم تظهر شيئاً من الاهتمام بشاعر أفرأحها ومسراتها حين أبحر من أستيا لبدأ سفره الطويل وابتعاده عن كل شيء ، ويحبه . وكان البحر هائجاً طوال أيام الرحلة تقريباً ،

ونخيل إلى الشاعر مرة أن الأمواج ستبتلع سفينته ، ولما أبصر تومي حزن
إذ بقي على قيد الحياة واستسلم للحزن واليأس .

وكان في أثناء الرحلة قد شرع ينظم القصائد المعروفة لنا باسم **الأهزانه**
Tristia . فلما جاء المدينة واصل نظمها وبعث بها إلى زوجته وابنته ووريثته
وأصدقائه . وأكبر الظن أن الروماني المرفه الحس قد بالغ في وصف
أهوال موطنه الجليد حين قال عنه إنه : مكان قفر خال من الأشجار
لا ينبت فيه شيء وإن كان ضباب البحر الأسود حجب عنه الشمس ، وإن
البرد يشتد فيه حتى يبقى ثلج الشتاء في بعض السنين طوال فصل الصيف ،
ويتجمد ماء البحر الأسود في فصل الشتاء المظلم الكئيب كما يتجمد ماء نهر
الدانوب حتى ليسهل أن يمر عليه البرابرة الضاربون حول المدينة ويغزوا
على أهلها وهم خليط من الجيتا **Getae** حملة الخناجر واليونان المهجنين . ولما
فكر في سماء رومة الصافية وحقول سلمو **Sulmo** الناضرة تحطم قلبه أسى
وحسرة ، وسرى في شعره - وكان لا يزال جميلا في شكله ولفظه -
شعور عميق قوى لم يسر فيه قبل .

وتتصف « **الأهزانه** » هي والرسائل الشعرية التي كتبها لأصدقائه
« **من البحر الأسود Ex Ponto** » بكل ما تتصف به أعماله العظيمة من سحر
وجمال ، فقد بقي له في منفاه كل ما كان له من ألفاظ سهلة يبعث بها السرور
في القلوب حتى وهو في المدرسة ، ووصف للمناظر تكتسب وضوحها من
نفاذ بصره وسن خياله ، وقنطرة على تصوير الأشخاص وبت الحياة فيهم بما أوتي
من دقة ومهارة سيكولوجية ، وعبارات موجزة مليئة بالتجربة والتفكير ، ورقة
في الحوار ، ويسر وسهولة في الأوزان ، كل هذه الخصائص قد بقيت له في منفاه
ونخالطها جيداً ووقار ورقة ، كان افتقار قصائده الأولى إليها مما جعلها غير
جديرة بالرجال . وكان ينقصه في جميع مراحل حياته ، فالخلق ، كما أنه قد أفسد

شعره في وقت من الأوقات بما ملأه به من وصف الشهوات الجنسية التافهة ،
فقد أغرق الآن أشعاره بفيض من الدموع والتضرع للزعيم والتدلل له .

وكان يحسد القصائد التي تستطيع الوصول إلى رومة ، ومن أقواله في
هذا المعنى : ارحلى أيتها الكتب وحي باسمي الأماكن التي أحبها « و « أرض
بلادى العزيزة على » (٩٥) ويتمنى لو أن صديقاً شجاعاً حمل هذه الرسائل
إلى الإمبراطور فأشفق عليه . وهو يفضح في كل رسالة عن أمله في أن يعفو
الإمبراطور عنه ، أو يأمر بنقله إلى مكان أقل قسوة من منفاه . وهو لا ينفك
يذكر في زوجته ويردد اسمها في أثناء الليل ، ويتمنى أن يقبل شعرها
الأبيض قبل أن تحين منيته (٩٦) . ولكنه لم يصله عفو ، حتى إذا قضى في المنفى
تسع سنين وبلغ من العمر ستين عاماً ، رحب بالموت ، وجيء بعظامه إلى
إيطاليا استجابة لرجائه ، ودفنت بجوار عاصمة البلاد .

وحققت الأيام ما تنبأ به لنفسه من شهرة خالدة ، وكان له في العصور
الوسطى مالفرجيل من أثر عميق ، وأضحى كتاباه « التحولات » و « الهيرويدات »
مصدر كثير من روايات الحب في تلك العصور ، واستمد منه بوكاشيو ،
وتسو ، وتشوسر ، واسبنسر كثيراً من موضوعاتهم ، ووجد مصورو
النهضة في أشعاره الشهوانية كنزاً من الموضوعات لا ينضب له معين ،
وملاك القول أنه كان أعظم شاعر وجداني إبداعي في العصر العقلي الاتباعي .

وانقضى بموته عهد من العهود الزاهرة في تاريخ الأدب . ولا جدال
في أن عصر أغسطس لم يكن من أزهى عصور الأدب كما كان عصر بركلينز
في اليونان أو عصر إلزبث في إنجلترا .

وقد كان حتى في أحسن ما أخرجه من النثر بلاغة طنانة ، وفي خير
ما أخرجه من الشعر كمال في الشكل قلما ينتقل كلاهما من القلب إلى القلب .

ولاسنا نجد في هذا العصر من يضارع إسكاس أو يورپديز أو سقراط أو حتى
لكريشيوس أو شيشرون . لقد كان احتضان الإمبراطور للأدباء هو الذي
يلهم أدب رومة ويغذيه ويقمعه ويضيق عليه . وإن العصر الأستقراطي -
كعصر أغسطس أو لويس الرابع عشر أو القرن الثامن عشر في إنجلترا -
إن هذا العصر ليعلى من شأن الاعتدال والتوسط ، وحسن الذوق ، ويوجه
الأدب وجهة « اتباعية » في الأسلوب يعلو فيها العقل والشكل على الوجدان
والحياة . وذلك أدب أكثر صقلا وأقل حيوية ، وأنضج وأقل
تأثيراً من أدب العصور أو العقول المبدعة العاطفية . ولكننا إذا
غضضنا الطرف عن هذا ونظرنا إلى أدب ذلك العصر في نطاق الأدب
العقلي الاتباعي وجدناه جديراً باسمه ؛ فنحن لا نرى من قبله حكماً رزيناً
قد عبر عنه بمثل هذا الفن البالغ أوج الكمال ، وحتى المرح الجنوبي الذي
وصفه أوفد قد خفف من حدته القالب الاتباعي الذي صب فيه . وقد
بلغت اللغة اللاتينية في شعره وشعر فرجيل وهوراس أعلى ما وصلت إليه
بوصفها أداة لقرض الشعر ، ولم تبلغ بعدهم ما بلغت في أيامهم من ثراء
في اللفظ ، وفخامة في النغم ، ودقة في التعبير مع إيجاز ومرونة وعذوبة
ألفاظ .